محكم

نظرية "البيلدونغ" وتأسيس فكرة الثقافة:

فلسفة التكوين الذاتي

محمد شوقي الزين

باحث جزائري

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

ملخص

مصطلح "البيلدونغ" Bildung حديث العهد والنشأة، يعود أساساً إلى القرن الثامن عشر مع بروز فلسفة الأنوار وظهور النزعات الرومانسية، ولكن كانت له نماذج عريقة خصوصاً في العصر اليوناني. إذا كان هذا المصطلح يتمتع بتاريخ وذاكرة ولغة ومؤسسة، يبقى مع ذلك مفهوماً كونياً أو عالمياً، لأنه خاصية كل إنسان يعتني بتكوين ذاته وتشكيلها الفكري والنظري والروحي، بعناصر يستقيها من بيئته وتراثه أو تلك التي يستفيد بها من الأقاليم الثقافية الأخرى التي يتواصل معها.

تحاول هذه الدراسة تقديم لوحة شاملة عن هذا المصطلح الفريد، والوقوف عند بعض المحطات التاريخية في عملية تكوّنه وتوسّعه، محطات دينية وأدبية وفلسفية. كما أنها تقترح كلمة للاضطلاع بهذا المصطلح، كلمة منحوتة بمادة اللغة العربية، وهي "التبرية"، وتقدّم التعليل النظري لهذا الخيار الاصطلاحي.

مقدمة

"البيلدونغ" (*Bildung*) هي أكثر من كونها كلمة. إنها مصطلح ومفهوم وذاكرة وتاريخ ومؤسسة، تستقطب في ماديتها الحرفية مجموعة من الذخائر النظرية والعملية، وتتقاطع مع معارف عديدة كالتربية والثقافة والتعليم. ولكنها تتوسّع نحو استعمالات أخرى قد تكون سياسية أو دينية أو إيديولوجية نظراً لكثافتها المفهومية وثِقلها التاريخي. ترتبط هذه "الكلمة- المفهوم" بإقليم وزمان، وهو ألمانيا القرن الثامن عشر، وتلوّنت عبر المراحل التاريخية لتتّخذ لوناً معيّناً وهو الأنوار ثم تيار "العاصفة والعاطفة" ثم الرومانسية. الكلمة التي تمّ بها ترجمة البيلدونغ هي "الثقافة". هذا صحيح إذا أخذنا الثقافة كمبدأ عام في التصوّر والسلوك، وليس كمبدأ خاص في المعرفة والاطلاع. لكن تبقى الثقافة دون الوعد المنشود في الاقتراب من جسد المقولة. فهي كلمة- نجدة تُساعدنا على التعبير عن البيلدونغ في غياب ترجمة محترفة، لكنها لا تقول بعُمق ما يمكن فهمه أو استيعابه من المقولة ذاتها. أستعمل مؤقتاً كلمة "الثقافة" كتعبير عن "البيلدونغ"، وأحاول نحت كلمة جديدة تقترب من روح المقولة، والتي وجدتها في لفظ "التبرية" لأقدّم مبرّرات هذا النحت. وامتداداً لكتابي «الثقاف في الأزمنة العجاف: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب» (2013)، تشكّل هذه الدراسة بذرة للجزء الثاني من أجل مشروع متشاجر في الثقافة يستند إلى مناهج تأسيسية، وهي الفينومينولوجيا والهيرمينوطيقا، ويشتغل على مباحث ترتبط عضوياً ووظيفياً بالبيلدونغ، وعنيتُ بذلك الثقافة والتربية والمعرفة والجمال والترجمة. فهذه الدراسة هي بمثابة خطة مشروع وخارطة في الطريق الفلسفي نحو نقد العقل الثقافي.

1– تحديد مقولة "البيلدونغ"، والمسوّغ العربي "التبرية"

يمكن تقديم مجموعة من المترادفات لفكرة البيلدونغ قصد "تحديد" الفكرة قبل "تعريف" الكلمة: تكوين، تشكيل، تثقيف، تربية، تنمية، تصوير، تطبيع، قولبة... الأمر الغالب في هذه المترادفات هو طغيان "الصورة" (*Bild*)، لأنّه عليها بُنيت الفكرة. وكانت كلمة الصورة تتمتّع بدلالتين شبه متناقضتين سأفصّلهما لاحقاً: 1- الدلالة الدينية/العرفانية عبر كلمة الصورة (*imago*)، وكلمة التقليد (*imitatio*). فالنفس تتحصّل على صورة الإله (*Imago Dei*) في ذاتها ("اليسوع" في التصوّر المسيحي)، فتتشكّل به (in-*formée*) وتمتثل إليه (con-*formée*) باتباعه وتقليده، وتصبح بالتالي صورة اليسوع[1]؛ 2- الدلالة الطبيعية/الحيوية بتصوير الكائن في الطبيعة، أي حصوله على الشكل العضوي والوظيفي (أعضاء، أجهزة، أوعية..)، كما هو الشأن مع تصوير

[1]- جياني فاتيمو وآخرون، **موسوعة الفلسفة**، باريس، منشورات كتاب الجيب، 2002، ص 179؛ هانس جيورج غادامير، **الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية**، ترجمة حسن ناظم، علي حاكم صالح، طرابلس، دار أويا، 2007، ص 58

الجنين في الرحم تبعاً لما نقرأه في المرجعية الإسلامية مثلاً: «هو الذي يُصوّركم في الأرحام كيف يشاء» (آل عمران، 6)؛ «الذي خلقك فسوّاك فعدلك، في أيّ صورة ما شاء ركّبك» (الانفطار، 7-8). وكلمة الصورة (*Bild*) في الألمانية غنية ولها دلالات متعدّدة حسب مواطن المعالجة وأقاليم الرؤية: النموذج الأصلي (*Urbild*)، البراديغم (*Vorbild*)، النسخة المصنوعة (*Abbild*)، النسخة المقلَّدة (*Nachbild*)؛ والمفردات المتعلّقة بها مثل تطوير الذات (*Ausbildung*)، التأقلم مع الوسط (*Anbildung*)، التكوين الذاتي (*Selbstbildung*)، التحسين (*Fortbildung*)،.... إلخ.

أورد هنا بعض التحديدات المبدئية حول فكرة "البيلدونغ" لأناقشها وأبيّن قيمتها الإبستمولوجية والتاريخية:

أولاً: «تُصبح "البيلدونغ" فكرة البشرية كمبدأ مُكوِّن، تشكيل عُضوي ـ كما هو الحال في الطبيعة- لما تمّ الحصول عليه بالكسب والنقل»[2].

يطرح هذا التحديد الفكرة التي تعتبر أنّ البيلدونغ هي مبدأ مكوّن؛ والمبدأ هو الأساس الذي تنبني عليه التصوّرات والممارسات؛ ليس فقط الأساس كقاعدة تنطلق منها الأبنية السلوكية والتصوّرية، ولكن الأساس المكوّن أو المشكّل للطبيعة البشرية وللثقافة الإنسانية على حدّ سواء. استعارة النبتة أو الشجرة مفيدة في هذا المضمار، لأنّ لها علاقة وطيدة بمفهوم الثقافة بالمعنى اللاتيني لكلمة "كولتورا" (*Cultura*): زراعة الأرض؛ وبالقياس: فلاحة النفس. أقول إنّ استعارة النبتة أو الشجرة مفيدة، لأنها تعكس هذا المبدأ المكوّن الذي يجعل من موضوع التكوين منظومة متكاملة من الأجزاء والوظائف: الأغصان والفروع هي امتداد للجذور والسيقان، لأن في أصل العملية كانت هنالك بذرة حاملة في طياتها النبتة أو الشجرة المكتملة؛ اكتمال مضمر لا ينفك عن التحوّل بمقدار تطوّر البذرة، لأنه تشكيل عضوي يخص الكائن الحي، سواء تعلق الأمر بالبذرة في صيرورتها نبتة أو شجرة أو بالجنين في صيرورته حيواناً أو إنساناً. يكتسب الكائن خلال هذا التشكيل العضوي والتطوّر الوظيفي بعض الخصائص والميزات التي يقتسمها مع فصيلته أو نوعه كما هو معروف في علم الأحياء. فهو يكتمل بالحصول على الصورة الوافية، حيث تكون القيمة الغائية هي الحفاظ على نوعه. لكن بالقياس مع هذا التصوّر الطبيعي، فإنّ التصوّر الثقافي يأخذ بالقيمة الصورية، لأنّ حول الصورة، والتصوير عموماً، تحدّدت فكرة الثقافة. البيلدونغ هي بالتعريف عبارة عن "تصوير"، بالمعنى الطبيعي كما بالمعنى الثقافي، الذي يتّخذ صيغة تصوير الأفكار والقيم في النفس البشرية؛ مثلما عليه الخِلقة البشرية من اكتمال.

[2]- فاتيمو وآخرون، المرجع نفسه.

ثانياً: «يقتضي التعريف الألماني للبيلدونغ تحديث الاكتمال البشري. فهي لا تُختزَل إلى أيّ محتوى محدَّد [...] بدلاً من أن تكون مجرّد تجميع في المعارف الموضوعية، تنشأ نظرية البيلدونغ، كما حدّدها هومبولت، على قطيعة بين حقول المعرفة المجزّأة والمتكاثرة والتطوّر الأخلاقي للبشرية»[3].

فالغاية من البيلدونغ هي التصوير للوصول إلى أفضل "خِلقة" لها قيمة جمالية، وللوصول إلى أفضل "خُلُقية" (éthique) لها قيمة أخلاقية (morale)، على اعتبار أنّ الصيغة الخُلُقية هي فردية تخص عملية اكتساب الفرد للسمات السلوكية المتداولة والتأقلم معها، والصيغة الأخلاقية هي جماعية، لأنها تشكّل منظومة من القيم المراد التأقلم معها. فالغرض هو بلوغ الاكتمال الذي ليس هو الكمال، لأنّ من شأن الاكتمال أن يشتغل الإنسان على النقائص بتهذيبها وتقويمها دون محوها كليّة، لأنّ النقيصة هي في الطبع البشري. ولأنّ هذه النقيصة موجودة في طبعه وتُصاحبه في حياته، فهو ينزع إلى الاكتمال للتحكّم فيها وتوجيهها بكسب الفضائل وعدم الاستسلام لها بالتمرّغ في الرذائل. تنبني البيلدونغ على الفاصل الحاسم بين المعرفة والسلوك، لأنها لا تخص نظام المعرفة وعملية تجميع المعلومات، ولكن نظام القيمة وطريقة تشكيل الذات. التقدم في المعارف والعلوم لا ينجر عنه بالضرورة التطوّر في القيم، وهذا ما أخذ به هومبولت بالاعتماد على روسو الذي اعتبر في «خطاب حول العلوم والفنون» أنّ التقدّم الذي حملت الأنوار مشعله ساهم في إفساد الأخلاق، في جوابه على سؤال أكاديمية ديجون سنة 1749: «هل تأسيس العلوم والفنون ساهم في تطهير الأخلاق أم في إفسادها؟». إذا كانت فكرة روسو تذهب عكس الأنوار الغالبة آنذاك، فإنّ رؤيته الثاقبة والسابقة لأوانها كانت تُنذر فعلاً بخطر التقدم الذي عندما تجسّد في التقنية وأتاح صناعة الأسلحة وتجميع القوة وتوسيع الهيمنة سبّب في حربين عالميتين مدمّرتين وفي سقوط القيم. قد يتقاطع نظام المعرفة مع نظام القيمة ولكنه لا يشكّل المبدأ، فقط الركيزة أو الحظيرة لاقتناء معارف محلية لغاية سياقية.

ثالثاً: «إنّ البيلدونغ، التي تُجسّد لحظة أساسية في تطوّر فكرة الثقافة، هي التشكيل الفكري والأخلاقي والجمالي للإنسان. لا يُختزَل التشكيل الفكري إلى اكتساب معرفة موضوعية ولا إلى تجميع المعارف، مهما كانت علمية؛ فهي تتوقف على استبطان الروح الفلسفية وتطويرها تبعاً لتصوّر "الأنسيكلوبيديا"»[4].

إذا لم تكن البيلدونغ كمية المعارف التي يقتنيها الإنسان، فهي بلا شك نوعية القيم التي يتشكّل بها ويصقل ذاته بموجبها. تجميع المعارف هو عتبة أولية، كمية في محتواها، لا تعبّر بعُمق عن جوهر البيلدونغ خصوصاً وعن ماهية الثقافة عموماً. فالمعرفة الموضوعية التي تتبع منهجاً وتقصد نتيجة هي مستقلة عن نظام القيم الذي

[3]- ميشال إسباني، «البيلدونغ»، في: باربارا كاسان، **المعجم الأوروبي للفلسفات**، باريس، سوي/لو روبير، 2004، ص 195

[4]- فيكتور هيل، **فكرة الثقافة**، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، 1981، ص 57

يُشكّل الدلالة التصوّرية والسلوكية للإنسان. هذا لا يعني أنّ المعرفة تتواطأ مع الخبرة على حساب القيمة. فالخبير العلمي مثلاً الذي يشتغل في مختبره ويتعامل مع معرفة موضوعية ومنهجية وبلغة تقنية، فيزيائية أو رياضية، ويتوصّل إلى نتيجة علمية؛ ليس عارياً من كل قيمة نظرية أو روحية. عندما درس توماس كون (Thomas Kuhn) بنية المعرفة العلمية بالاعتماد على مفهوم إجرائي، وهو "النموذج" (paradigme)، فإنه توصّل إلى فكرة مفادها أنّ نظام الثقافة والقيمة يُؤطّر بشكل غير مباشر الخبرة التقنية للفاعل العلمي. وبالتالي يتداول المجتمع العلمي ذخائر فكرية وثقافية من عادات وتقاليد وقيم. إنّ النظامين، المعرفي والقيمي، يتواجدان في الحيّز نفسه ويتقاطعان، ولكن يحتفظ كل نظام بخصوصيته وعتبته. إنّ القطيعة بين حقول المعرفة والتطوّر الأخلاقي للبشرية التي تحدث عنها هومبولت لها مسوّغ في هذا الإطار، وهي قطيعة في الدرجة وليست في الطبيعة، لأنّ المعرفة لا تنفك عن القيمة ما دامت الأنظمة الإدراكية والسلوكية للإنسان (بما في ذلك الخبير العلمي) تشتغل بأدنى درجة من المعرفة، أمّا على صعيد الطبيعة، فإنّ تقدّم المعارف لم ينجرّ عنه تحسين القيم، أو بعبارة أخرى مسار الحضارة الصاعد لم ينتج عنه بالضرورة صيرورة القيمة نحو الاكتمال، سوى بشقّ الأنفس وبمحن وعثرات.

رابعاً: «يستحضر مفهوم البيلدونغ مثاليات الوحدة والعالمية والاندماج. فهو مُكمّل ومُصحّح لـ[فكرة] اكتساب المعرفة المتخصّصة وللكفاءات الخاصة. فكرة البيلدونغ هي المقابل للتخصُّص وللتجزئة المتنامية للمعرفة [...] فهي تُذكّر بأنّ ما يهمّ ليس ما نعرفه [المعرفة]، ولكن ما نحن عليه [الوجود]»[5].

يُركّز هذا التحديد الرابع بالأحرى على التكامل بدلاً من القطيعة، ويستعمل كلمات الإكمال والتصحيح. على عاتق القيمة، التي تتبدّى في الوحدة والعالمية والاندماج، أن تُصحّح مسار المعرفة التي لا تنفك عن التخصُّص والتشعُّب والخبرة والكفاءة. لدرء خطورة أن تصبح المعرفة مجرد ذريعة للهيمنة، فتكون رديف السلطة كما ذهب ميشال فوكو من خلال تقنيات الضبط والعرض والتصنيف، أي تقنيات سجن موضوع المعرفة في قوالب وهياكل وشبكات؛ أقول لدرء هذه الخطورة، فإنّ القيمة أو الروح من شأنها أن تُلطّف المعرفة بدلالة ثقافية وبُغية أنطولوجية. يتعلق الأمر بالنمط في الوجود فيما وراء النمط في المعرفة، لأنّ البيلدونغ تخص موقف الإنسان «في» العالم قبل أن تعتني بموقفه «من» العالم؛ أي أنها تأخذ بعين الاهتمام تواجده في العالم ونمط العلاقة التي يُقيمها به في شكل تمثّل وسلوك وتوجّه وقصدية، وليس فقط نمط الإدراك في شكل معرفة يكتسبها من المحيط الذي يحيا فيه أو يقتنيها من التراث الذي ينتمي إليه. يمكن القول إنّ

[5]- أليدا أسمان، **بناء الذاكرة الوطنية: تاريخ مختصر في فكرة البيلدونغ الألمانية**، ترجمة فرانسواز لاروش، باريس، منشورات دار علوم الإنسان، 1994، ص 5

البيلدونغ هي أنطولوجيا أكثر منها إبستمولوجيا، تجعل وضعية الإنسان في العالم العلة المباشرة لكل بحث نظري حول سؤال الثقافة. لا شك أنّ المبحث الإبستمولوجي له باع في قراءة هذا السؤال لأنه يركّز نشاطه على نمط الإدراك والحدس، لكن ينحصر صُلب النظرية الثقافية في المبحث الأنطولوجي الذي تنتمي إليه البيلدونغ.

خامساً: «تُثبت البيلدونغ حقها كنموذج في التكوين الراقي والكامل، أمام الثقافة (Kultur) ("الذوق" من أجل الكلاسيكي بلا قلب، الباطن) وأمام العقل المحدود، أمام إنسان الفهم (Verstand) أو التنوير (Aufklärung) الذي يفتقر إلى الذوق وإلى القلب»[6].

يأتي هذا التحديد الخامس ليُفرّق بين البيلدونغ والثقافة من جهة، وبين البيلدونغ والعقل من جهة أخرى. جرت العادة أن تكون الثقافة هي حوصلة المعارف والمعلومات التي يكتسبها الإنسان من محيطه المباشر (العائلة، المدرسة) أو يقتنيها من التراث بحكم الانتماء التاريخي والجغرافي؛ وأن تكون البيلدونغ هي التثقيف والتكوين عبر قنوات التربية والحسّ السليم، حيث تتدخّل اعتبارات أخرى غير المعرفة، مثل الذوق والحُكم والاستبطان وغيرها من التقنيات الفنية والجمالية في تكوين الإنسان. كذلك جرت العادة، منذ عصر الأنوار، أن يكون العقل هو جِماع الملكات البشرية في التمييز والتنوير والفهم، بينما تعطي البيلدونغ الصدارة للذوق والقلب؛ أي باطن الإنسان عموماً. كان هذا شعار تيّار «العاصفة والعاطفة» (*Sturm und Drang*) الذي حمله جيل شيلر وغوته بالتركيز على القيم الذوقية والروحية بالموازاة، وأحياناً بالتقابل، مع القيم العقلية التي رأوا فيها نوعاً من الجفاف بالمقارنة مع خصوبة الذاكرة والخيال والحس الرهيف.

إذا قمتُ بخلاصة تُحدّد خصائص البيلدونغ، فإنني أجمعها في النقاط التالية: 1- الخاصية الرئيسة هي التصوير أو التشكيل، أي إضفاء صورة على الكائن، الحيواني أو البشري بالمفهوم العضوي؛ والإنساني على وجه الخصوص بالمفهوم الثقافي والروحي؛ 2- الخاصية الثانية التي تتمتع بها البيلدونغ هي نظام القيمة في استقلالية عن نظام المعرفة. التخصص والمعرفة هما الشرط الخارجي لكل تقدم حضاري، ولا يشكلان الشرط الداخلي لكل اكتمال ثقافي للذات. وحدها القيمة تضيف نوعية جديدة تعتني البيلدونغ باستثمارها وتتجلى على وجه الخصوص في التربية ونحت الذات؛ 3- إذا كانت البيلدونغ تنعطف على نظام القيمة الذي من شأنه أن يُصحّح ويوجّه نظام المعرفة، فهي نمط في الوجود. الحقيقة الأنطولوجية هي الإطار العام الذي تشتغل فيه البيلدونغ فيما وراء الحقيقة المعرفية، لأنها تأخذ في الحسبان «وجود-الإنسان-في-العالم» كحقيقة تاريخية وثقافية، وليس فقط المعرفة التي يؤسّسها حول هذا العالم؛ 4- إذا كانت البيلدونغ وجودية أكثر منها معرفية،

[6]- مارينو بوليرو، «أصل البيلدونغ» [ملحق]، في: **الرغبة في الأصالة. فالتر بنيامين وميراث البيلدونغ الألمانية**، باريس، منشورات بايار، 2005، ص 297

فهي رؤية جمالية للحياة أكثر منها قراءة إبستمولوجية في الواقع. إنها حامل قيم الروح والذوق التي تجعل من الحياة دائرة الانتماء والاستغراق وليس موضوع القراءة بالمسافة النقدية المنوطة. فهي تُجنّد كل قنوات الإدراك الحسي في الاضطلاع بالحقيقة الإنسانية وليس فقط الإدراك العقلي الذي هو أداة المعرفة.

يبقى الإشكال الآن في إيجاد مقابل عربي لهذه المقولة. المفردات التي أوردتُها في بداية الدراسة تنعت المقولة ولا تقول بعُمق طبيعتها المفهومية. لكي تقترب المفردة العربية من هذه المقولة، تضحي فكرة "الصورة" هي الأمر الأساسي والمحوري. فأيّة كلمة عربية يمكنها أن تضطلع بهذا المفهوم؟ أعود مؤقتاً إلى المفردات الواردة سابقاً لأبيّن بأنها لا تفي بالمطلوب بالمقارنة مع الحمولة الدلالية والتاريخية للمفردة الألمانية: 1- كلمة "تصوير" تعني أساساً إضفاء الصورة مثل تصوير الكائن الحي في الرّحم، كما تُبرزه الآية المذكورة سابقاً. لكن تنحصر الفكرة في البُعد الطبيعي أو العضوي ولا ترتقي إلى البُعد الثقافي؛ 2- كذلك الشأن مع كلمة "التكوين" التي هي بالأحرى عضوية، رغم أنه بالإمكان التعويل على فكرة "الكائن" التي تنطوي عليها؛ وتُستعمل اليوم في اللسان العربي للتدليل على تكوين الكفاءات أو الإطارات، أو أيضاً التكوين المدرسي والجامعي والمهني. فهي تقترب من المفردة الألمانية، لكن بوجود الصفة: "التكوين الذاتي" مثلاً؛ 3- كلمة "التشكيل" تدخل في النطاق نفسه بإضفاء الشكل على الشيء، لكن تبقى الكلمة دون مستوى الفكرة، لأنها تنعتُ حالة ولا تُصوّر قيمة، ولا يمكن إدراك هذه القيمة إلا بالصفة: "التشكيل الفني" مثلاً؛ 4- كلمة "التثقيف" ترتبط أكثر بالثقافة من حيث دلالتها على اكتساب مجموعة من المعارف والدلالات بفعل القراءة والاطلاع والفضول المعرفي، ولكن لا تذهب إلى أبعد من هذه الصيغة الظاهرة في التجميع أو التكديس.

إذا كانت هذه المفردات تقترب من المقولة ولا تمسّها في الصميم سوى بإضافة صفة، فأيّة كلمة يمكنها أن تؤدّي الوظيفة الدلالية والفلسفية؟ أقترح كلمة **"التبرية"** لاعتبارات سأشرحها بتفصيل. الفعل "برى" معناه "نحت"، مثل برى العود أو برى القلم أي نحته وصقله. ونحت الشيء هو إضفاء الشكل أو الصورة عليه، مثل نحت التماثيل كما كان معروفاً في العصر اليوناني، ولهذا النحت قيمة جمالية في التعبير عن الفكرة المثالية في صورة ملموسة. ويمكن الانتقال من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية بالحديث عن "نحت الذات"، أي تشكيلها بالقيم الفكرية أو الروحية. لكن يبقى النحت في عتبة التصوير بإضفاء الصورة. لكي تكون للصورة قيمة فاعلة وليس فقط قيمة شكلية، فإن الفعل "انبرى" معناه "اعترض". فالذات لا تنبري سوى بأن تعرض نفسها أمام موضوع يُقابلها، تتغذى منه في عملية تكميل روحي واستيفاء أخلاقي. أن تعرض نفسها هو أن تجعل ذاتها في الواجهة، في المعارضة، في اللقاء والاحتكاك: «تبرّيت بالمعروف أي تعرّضتُ له»، يقول القاموس. لهذا نتحدث عن "المباراة" في الرياضة؛ أي المعارضة والمنافسة بالتقاء خصمين للظفر بالفوز.

والمبراة هي الحديدة التي يُبرى بها، على ما نقرأ في القاموس[7]. هذه الدلالة الحقيقية لها دلالة مجازية في كون الطبيعة تُبري الكائن عُضوياً مثلما تبريه الثقافة فكرياً وروحياً. ومسوّغ ذلك ما يقوله روسو بهذه العبارة: «يُكره الإنسان الأرض على إنبات ما تُخرجه أرض سواها، ويُكره الشجرة على حمل ثمار شجرة غيرها. يخلط بين الأجواء والعناصر والمواسم، ويخصي كلبه وحصانه وعبده. يقلب كل شيء، ويشوّه كل شيء. يحب المسخ والامساخ، ولا يريد شيئاً على الوجه الذي برته الطبيعة حتى ولو كان ما برته الطبيعة إنساناً مثله»[8]. وفي نص آخر يتساءل روسو: «كيف يتوصل الإنسان إلى مشاهدة نفسه كما كان يوم برته الطبيعة، رغم جميع التغييرات التي أحدثها في أصل تكوّنه تعاقُب الأزمان والأشياء؟»[9]. برته الطبيعة بأن وهبته الخِلقة وتُبريه الثقافة بأن تُكسبه الأخلاق.

يتحدّث اللسان العربي أيضاً عن البريّة وهي الخليقة، لأنّ الفكرة تحتمل الخلق والتصوير: «برأ الله الخلق، برأهم: أي خلقهم» (تاج العروس، ص166). ومنه الاسم البارئ أو الباري الذي يتأرجح بين الخلق والتصوير. وحول ذلك يكتب الغزالي: «والله تعالى: خالق من حيث إنه مقدّر، وبارئ من حيث إنه مخترع موجد، ومصوّر من حيث إنه مرتّب صور المخترعات أحسن ترتيب»[10]. فالخلق هو الميزان والتقدير بجمع مكوّنات الكائن المخلوق، والبَرء هو الإيجاد بنقل الكائن من العدم إلى الوجود، والتصوير هو إضفاء الصورة الحسنة على الكائن. نُدرك، من خلال هذه الميتافيزيقا الخَلقية في الثقافة الإسلامية، أنّ عملية تشكيل الكائن هي تتابُع بين مكوّنات تُجمع، ثم توجد، ثم يُضفى عليها الصورة. إذا كان البارئ هو الموجد، فهو حالة وُسطى بين حالة لمّ العناصر وحالة تزيينها بالصورة؛ أي الخِلقة الحسنة والمكتملة. من جهته يضع ابن عربي حضرة البارئ في الإيجاد، بأن يوجِد المرء في ذاته موضوع اعتقاده ويعقد حوله "عُقدة" متينة هي ما نسمّيها "الاعتقاد" على المستوى التصوّري-الإدراكي و"العقيدة" على الصعيد النصي-النسقي. فالإنسان يعتقد في الحق لأنه يبري في ذاته هذا الحق، وهي فكرة تقترب من المعلّم إكهرت في العرفان الريناني (Rhénanie) كما سأتوقف عند ذلك لاحقاً: «فقد برى في نفس كل معتقد صورة حق يقول من يجدها هذا هو الحق الذي نستند إليه في وجودنا»[11]. ومن يبري هذه الصورة، فهو ينحتها في ذاته ويعتقد فيها، تكون له بمثابة المثال المشهود والنموذج المعلوم. بالإضافة إلى ذلك، تحتمل الكلمة فكرة "البُرء" بالتخلّص من عاهة واسترجاع صحة وعافية، وهي فكرة موجودة بكثافة عند نيتشه مثلاً الذي جعل من الصحة

---

[7]- الزبيدي، **تاج العروس**، مجلد 16، جزء 37، ص 164

[8]- جون جاك روسو، **إيميل أو في التربية**، ترجمة نظمي لوقا، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1958، ص 24

[9]- جون جاك روسو، **خطاب في أصل التفاوت بين البشر**، ترجمة بولس غانم، مركز دراسات الوحدة العربية، 2009، ص 51

[10]- أبو حامد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص 52

[11]- ابن عربي، **الفتوحات المكية**، بيروت، دار صادر، د.ت، الجزء الرابع، ص 212

معيار الوجود البشري خلافاً للتاريخ الفكري الذي حصرها في الحقيقة أو السعادة. كلمة "التبرية" التي أقترحها هنا لها مناسبة بالكلمة "التبرئة" مثلما نقول تبرئة الذمّة؛ أي الإعفاء أو التخلّص من أثقال خطيئة. وليس ببعيد عن ذلك تُقال "البُراية" للقشور وما يسقط من المبراة بنحت القلم أو العود. وبالقياس، التخلّص من الأعباء النفسية هو تبرئة العِرض بسقوط قشور التُهمة (المفترَضة أو الواقعية)، وهو "تبرية" الذات بقلع الرذائل وزرع الفضائل. فهي تتخلّص من الأدران العالقة مثلما يتخلص الجسد من النُفايات والفضلات.

بعض هذه القيم الحقيقية والمجازية التي ينطوي عليها الجذر "ب ر أ" نُصادفها بلا شك في البيلدونغ، وهو مسوّغ كافٍ لاختيار مفردة "التبرية"، رُغم عدم تداولها في الألسنة. لم يكن هذا الاختيار عبثاً، لأنّ التبرية هي مقلوب التربية، إذا أخذتُ بفكرة "القلب" عند فقهاء اللغة. وبشأن القلب يكتب السيوطي: «قال ابن فارس في فقه اللغة: من سُنن العرب القلب؛ وذلك يكون في الكلمة، ويكون في القصّة، فأما الكلمة فقولهم: جَبَذ وجَذَب»[12]. إذا كان السيوطي يورد الكلمات المقلوبة للدلالة على المعنى نفسه (جبذ وجذب يدلان على الفعل نفسه)، فإن القلب الذي أستعمله له خاصية فكرية محدّدة مثل قولي انفجر وانفرج، وعندما تنفجر الأمور فهي تنفرج تبعاً للقانون الفيزيائي والتاريخي: «الضغط يولّد الانفجار». أو مثل قولي عَقَل وعلَقَ والعقل هو بالتعريف "علاقة"، لأنه يربط العناصر الذهنية والتركيزية في وحدة منسجمة تدرأ التبعثر والتيه أي الخبل والجنون، إلخ. جعل التبرية مقلوب التربية معنى ذلك أنّ التبرية هي أداة التربية بحكم أنّ هذه الأخيرة تُبري الإنسان أخلاقياً واجتماعياً وفكرياً مثلما أبرته الطبيعة عُضوياً ووظيفياً بوهبه الصورة وبمدّه بعناصر الاكتمال، ليشتغل على ذاته خلال حياته. التبرية بالنسبة للإنسان هي كالتعرية بالنسبة للصخور الجيولوجية. هنالك عمل متواصل في نحت الطبع مثل عمل الطبيعة في نحت الصخور. لكن فيما يتدخل العقل أو العامل الذهني والإدراكي في توجيه التبرية وصقل الطبع والسلوك، فإنّ عمل الطبيعة هو عفوي من جرّاء العوامل الفيزيائية كالمياه والرياح والجليد والحرارة. لذلك تبدو صورة التعرية غير منسجمة، ذات أشكال أقل ما نقول عنها إنها "باروكية"، أي مبهمة أو غريبة.

2– من التكويم إلى التقويم... ثم التكوين

وهنا بالضبط تختلف الثقافة عن الطبيعة، فالثقافة هي اشتغال العقل على الحس أو قُدرة الإنسان على ضبط قواه وملكاته، أمّا الطبيعة فتشتغل بالقوانين الموضوعة في الكون. لكن نعرف أنّ تيّاراً فلسفياً مثل الرواقية كان يرى في الطبيعة عقلاً فاعلاً ومنسجماً، وأنّ العالم كائن حيّ وعاقل: «قال [كريسبوس]: عندما وقع الاشتعال من جانب إلى آخر، فإن العالم أصبح، من جانب إلى آخر، حياً ومتحركاً، وتحوّل إلى ماء وأرض وطبيعة

[12]- جلال الدين السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، القاهرة، مكتبة دار التراث، د. ت، الجزء الأول، ص 476

جسمية»[13]. فالعالم كائن حي وعاقل بوجود المبدأ الفاعل المتّحد به، وهو الإله الذي كان يرى فيه الرواقيون "ناراً حيّة" (*pûr teknikon*) تنساب فيه وتُبري كائناته، على غرار الحدّاد الذي يُضفي الأشكال على الحديد بالكير والحرارة القصوى. وبما أنّ العالم هو كائن حيّ وعاقل، فإنّ النظام والانسجام يُعمّر أرجاءه وفي أدق تفاصيله. أدرك الإغريق قيمة هذا الانسجام الكوني والطبيعي وعملوا على ترجمته في المجال السياسي والثقافي، كما بيّن فرنر ياغر في قراءته المعمّقة، التاريخية والفلسفية، لمصطلح "البايديا" (*Paideia*) الإغريقي وهو "التربية"، الذي كان يرى فيه "ما قبل تاريخ" البيلدونغ والتراث الأصيل الذي استمدّت منه هذه المقولة الألمانية قيمتها الفكرية. "البايديا" هي أكثر من كونها فكرة مجرّدة ولا تُختزل إلى نظام في السلوك تؤطّره التربية. "البايديا" هي مؤسسة ثقافية وترجمة الكوني في الفردي، والطبيعي في البشري، بإبراز الانسجام الخلاّق للعالم الذي يتفجّر (ومنه حديث الرواقية عن "الاشتعال": نوع من "البيغ بانغ" الخلاّق) في الطاقات العقلية والفعلية للإنسان.

يُفسّر فرنر ياغر كيف أنّ "البايديا" الإغريقية كانت تُشكّل ثقافة بأتم معنى الكلمة، وكانت النموذج التاريخي والتربوي للبيلدونغ الألمانية. فهي تعني الطريقة التي يُطوّر بها الإنسان ملكاته الذاتية وقواه الجسدية والعقلية. ويستعين في ذلك بمجموعة من الأدوات النظرية والعملية كالكتابة بحُسن الخط والحوار بحُسن النُطق والتعبير والرياضة في الجمباز وتدريب الذهن بالرياضيات والأرقام. هذه جُملة من الأدوات المبدئية التي جعلت من "البايديا" ثقافة في التربية، تعني نهجاً خاصاً في ترويض الذات وتدريب العقل على الحكم والتمييز: «كان الإغريق يعتقدون أنّ التربية تُؤسّس الهدف الأسمى لكل جُهد بشري [...] ففي نهاية المطاف، وفي صيغة "البايديا" أو الثقافة، ورّثوا للأمم العريقة الأخرى الروح الهلّينية في صورتها المكتملة»[14]. استطاع الإغريق أن يُشكّلوا نموذجاً قائماً بذاته، فريداً في نوعه، أصيلاً في تركيبته، حيث سارت العديد من الثقافات والحضارات على منواله واقتفت أثره، سواء تعلّق الأمر بالأدب عبر البلاغة والسرد أو بعلوم الفكر عبر الفلسفة والمنطق أو بالعلوم التاريخية عبر جمع الشهادات وتوثيقها وقراءة الوقائع وتحليلها بشكل موضوعي في قطيعة مع التصوّر الأسطوري. معظم المنظّرين للبيلدونغ جعلوا من النموذج الإغريقي المثال والثقاف، خصوصاً مع فلهلم هومبولت كما بيّن جون كيليان[15] وسأعود إلى ذلك. فالثقافات اللاحقة، خصوصاً الألمانية، كانت تبحث عن "ثقاف" تنبري به وتتقوّم به، ووجدته في اللحظة التأسيسية الإغريقية لما كانت تنطوي عليه من فرادة وأصالة في تاريخ البشرية.

---

[13]- بلوتارخوس، **في تناقضات الرواقية**، 1053ب، نقلاً عن: لونغ وسيدلي، **الفلاسفة الهلينيون**، الجزء الثاني: **الرواقيون**، الترجمة الفرنسية من إعداد برانشفيك وبليغران، باريس، فلاماريون، 2001، ص 256

[14]- فرنر ياغر، **بايديا: تكوين الإنسان الإغريقي**، الترجمة الفرنسية لأندري وسيمون ديفير، باريس، غاليمار، 1964، ص 15

[15]- جون كيليان، **ويليام هومبولت واليونان: النموذج والتاريخ**، منشورات جامعة ليل، 1983

جاء الاهتمام بهذا النموذج الثقافي والحضاري لأنّ الإغريق استطاعوا "أنسنة" الوجود في جميع الميادين الممكنة: "شخصنة" الآلهة في الدين، "أنسنة" الروابط الاجتماعية والسياسية، وأستعمل أيضاً "بشرنة" الجسد (من البشرية) بنقله من الدلالة الحسيّة الفظّة إلى القيمة الجمالية والخُلُقية. بينما كان الإنسان مُضمراً في الحضارات السابقة أو المتواقتة مع الإغريق بوجود كائن مفارق (الإله أو الآلهة) أو شخص مهيمن بحكم السلالة والنبالة (الملك) أو بحكم الرسالة والنبوءة (العرّاف، الكاهن)، فإنّ الإنسان أضحى في الثقافة الإغريقية معيار جميع الأشياء تبعاً لمقولة بروتاغوراس الشهيرة، وأصبح سيّد موقفه حتى وإن كانت مسألة الرق قائمة بوجود عبيد يؤدّون وظائف لا يمارسها الأحرار. ابتداءً من العصر الإغريقي، افتكّ الفرد باستقلاليته بالمقارنة مع المجتمع الذي ينتمي إليه، وكان المدخل الرئيس لسؤال الحرية الذي انعكس على الممارسات الاجتماعية والسياسية. لا يمكن الحديث عن "البايديا" بدون فرد يمتلك أدوات تثقيف ذاته وتكوين شخصه، بل فكرة "البايديا" في رمّتها وفي جذرها قائمة على حرية تصرّف الفرد بذاته بعيداً عن الإكراهات من أيّة جهة كانت. بوجود هذا الفرد المستقل، العفوي، المثقف، اتّخذت "البايديا" علّة وجودها. علاوة على ذلك، ومنذ بروز الطبيعة للوعي الإغريقي كمعادلة جوهرية في الحياة البشرية مما أتاح ظهور المدرسة الأيونية التي كانت تُفسّر أصل الكون بإرجاعه إلى أحد العناصر الفيزيائية الفاعلة (الماء، الهواء، التراب، النار)، فإنّ الإغريق أفلحوا في نقل هذه الفاعلية من الطبيعة إلى الثقافة؛ أو بالأحرى استلهموا من القوانين الراسخة في الكون والنواميس التي تُدبّر الوجود لترجمتها في الأنساق الفكرية والمنظومات السياسية والأخلاقية: «لقد كان لديهم الحسّ الفطري لكل ما هو طبيعي [...] أخذوا الكون ككليّة ولم يعتبروا العناصر التي تُركّبه وحدات منعزلة عن الباقي ولكن كقسط من مجموعة حيّة يرتكز عليها موقعها ودلالتها»[16].

انعكست الرؤية إلى الكون (*cosmos*) بنظرة جمالية وتأمّلية على الحياة البشرية بإيجاد انسجام مقابل في التصوّرات والسلوكيات. أدرك الإغريق هذا الانسجام الطبيعي في الجسم البشري لأنه امتداد للطبيعة، والقوانين السارية في الطبيعة تُدبّر أيضاً الجسم العضوي، وكانت الحاجة إلى نقل هذا التناسق إلى الميدان الثقافي بإيجاد منظومة منسجمة من الأفعال في الاجتماع والسياسة، لا يُنظر إليها فقط كحركات عفوية أو منتظَمة ولكن كتحفة فنية، أي إقحام الجمالي (esthétique) في الأخلاقي (éthique). أدرك الإغريق أنّ الانسجام الطبيعي هو علة الانسجام البشري، فجعلوا من الشعر "ثقاف" الفكر بقيامه على الوزن والإيقاع، ومن الرقم مثال الحساب والرياضة الذهنية، ومن "البايديا" رمز السلوك وحُسن الصنيعة والتصرّف والتدبير. وضعوا أيديهم على جوهر المسألة، وهي القانون المدبّر للأشياء أو تلك الروح الحيّة والعاقلة التي تسري في الكون كما ذهب

[16]- فرنر ياغر، **بايديا**، المرجع نفسه، ص 18

الرواقيون. إذا كانت القوانين التي تُدبّر الطبيعة هي عينها النواميس التي تدير التصوّرات والسلوكيات، فلا قطيعة حقيقية بين الطبيعي والثقافي. ما يقوم به الفرد هو إعادة اكتشاف الطبيعي في حياته، من خلال جسده وميوله وأذواقه، والعمل على ترويضه وتطويعه، وبالتالي "أنسنته". لأنّ الغرض من كل "بايديا"، من كل تربية، هي فض الفظاظة من الطبيعة، هي تأنيسها بأنسنتها، هي إعادة صياغتها لتتأقلم مع الثقافة البشرية: «إنّ تُحفة الإغريق كانت الإنسان. لقد كانوا الأوائل في فهم أنّ التربية تعني صياغة الطبع البشري بمثال محدَّد [...] كانت كلمة الثقافة مخصَّصة لهذا النوع من التربية الذي بشأنه استعمل أفلاطون الاستعارة المادية للطبع المراد صوغه. الكلمة الألمانية البيلدونغ تعني طبيعة التربية في اليونان بالمعنى الأفلاطوني: فهي تقترح التركيب اللدائني للفنان وأيضاً المثال الموجِّه الحاضر في الذهن، الفكرة أو النمط»[17].

لم تكن "البايديا" مسألة ذاتية محضة، ولكن انتقلت إلى المعالجة الموضوعية بوجود أشخاص أو مؤسسات تأخذ على عاتقها صقل الطباع ونحت السلوكيات بمجموعة من الأدوات التقنية كالشعر والخطابة والتشريع. فالشاعر يصنع الكلمة على غرار نحت التمثال، والمشرّع يصنع القوانين بضبط الأفعال. فهو يُسهم في تشكيل الذات الإنسانية بأساليب موضوعية تشترك فيها الذوات وتقوم عليها الثقافة والحضارة. فالكلمة الموزونة (الشاعر) والكلمة المضبوطة (المشرّع) لهما تأثير على الذات في سبيل صياغتها جمالياً أو سياسياً. والغرض هو دائماً إيجاد الانسجام الكوني في كامن الإنسان كانعكاس للانسجام الكوني في الطبيعة والفضاء. وليس هذا الانسجام مجرّد عالم ثابت كالمُثل المعلّقة، بل هو حركة وحيوية وطاقة (*energeia*)، يُبرز الطابع الفعّال للإنسان في كيفية تصريف ملكاته واستثمار قواه ومواهبه. لقد أدرك الإغريق وقتها أنّ "البايديا" تختلف عن المعرفة، أو التربية لا تُختزل إلى التعليم. فالطبع المراد نحته وصقله هو شيء، والرأس المراد شحنه بالمعارف هو شيء آخر. فكانت الضرورة في الانتقال من التكويم إلى التقويم، وأقصد بالتكويم شحن الأذهان بكمية من المعلومات المفيدة ولكنها غير كافية في تقويم طبعه وشحذ سليقته. يعود على التربية العناية بالتُربة البشرية أو "الأدمة" الإنسانية (ومنه الاسم "آدم") التي بها تمّ صُنع الإنسان، تبعاً لما جاء في القرآن: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون» (الحجر، الآية 26)؛ «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» (الرحمن، الآية 14). تُبرز هذه الصورة الحقيقية في الخلق من طين الصورة المجازية في نحت الإنسان على مستوى الطبع والسلوك. لقد أدرك الإغريق القدامى هذه المسألة بعطف الحقيقي على المجازي، أي اعتبار الذات الإنسانية كمادة قابلة للصياغة وإعادة التشكيل. وفي كل صناعة ذاتية هناك اتصال بالنشأة الأصلية التي هي الثقاف أو النموذج.

[17]- المرجع نفسه، ص 20

وسنجد في البيلدونغ فكرة مماثلة تذهب نحو القول إنّ التكويم على المستوى المعرفي (خصوصاً في عصر الأنوار) ليس المراد منه التقويم على المستوى الأخلاقي والتكوين على الصعيد الفكري والروحي (المذهب الرومانسي). أدركت البيلدونغ، سليلة "البايديا" إذن، هذه الحقيقة عندما راحت تبحث عن الإنسان "المتركّز"، أي ذلك الإنسان الذي يُجمّع أو يُركّز القوى في ذاته ويوجّهها نحو غايات نظرية وعملية بنّاءة؛ فيما عمدت الأنوار، بكمية المعارف ونشأة الحضارة، إلى البحث عن الإنسان "المتمركز" الباحث عن بسط الهيمنة واستثمار القوّة. يُفسّر ياغر كيف أنّ الفلسفة مثلاً كانت في التصوّر الإغريقي عبارة عن "بايديا" وثقافة[18]، وفقط مع التنسيق الأفلاطوني والأرسطي اتّخذت شكل التفكير بالبحث عن علل الوجود. في أصلها كما في اسمها ورسمها كانت ترتبط بالحكمة (*Sophia*)، والحكمة هي مسألة موهبة وقريحة وليست فقط معرفة أو تقدير، وتقتضي العناية بالنفس لبلوغ الكمال والسعادة. هذه الغايات القُصوى التي تبتغيها الحكمة تجعلنا نُدرك أنّ "البايديا" (وأيضاً البيلدونغ) هي "نمط في الوجود" وليست "نمطاً في المعرفة". يمكن القول إنّ "البايديا" هي فلسفة في التفتيش، أن يُفتّش الإنسان عن ذاته في أعماقه، ويُصدّق ذلك مقولتان: هيرقليطس القائل: «بحثتُ عن ذاتي بذاتي»[19] ؛ وابن عربي القائل: «فما كانت رحلتي إلا فيّ ودلالتي إلا عليّ»[20]. هذه العلاقة بالذات في شكل بحث عن المعنى أو تفتيش عن لغز أو حكمة هي التي تؤسّس القيمة التربوية للبيلدونغ. فالمراد بها تكوين صورة عن العالم في الذات، ليس صورة ذهنية تختص بها المعرفة، ولكن صورة أنطولوجية وجمالية تنفرد بها الكينونة، صورة تجعل من الذات صنو العالم، بحكم أنّ القوانين المنسجمة التي تُدبّرها هي عينها القوانين التي توجّه العالم.

يمكن القول إنّ الذات هي "طيّة" من طيّات العالم تُخبّئ في أعماقها عناصر هذا العالم؛ الطبيعية والروحية، وتحوّل هذه العناصر إلى قوّة موجّهة وقيمة عملية تتجلى في السياسة والأخلاق. والاستعارة البليغة التي تنعت البيلدونغ كفلسفة في الثقافة والتربية هي بلا شك تلك التي أوردها شيشرون بالمقولة «فلاحة النفس» (*cultura animi*): «إنّ أي حقل، مهما كان خصباً، لا يمكنه أن يُنتج بلا فلاحة، والأمر نفسه مع النفس بلا تعليم [...] فلاحة النفس هي الفلسفة: فهي التي تقتلع بشكل راديكالي الرذائل وتجعل النفوس في وضعية تلقي البذور وتزرع كل ما يمكنه أن يقتني محاصيل وافرة عندما يتطوّر»[21]. هذه المناسبة بين زراعة الأرض وفلاحة النفس هي بليغة ونادرة من وجهة نظر تاريخ المفاهيم والتصوّرات. ويمكن إيجاد مسوّغ عربي لها في

---

[18]- ياغر، **بايديا**، ص 525، هامش 2

[19]- المرجع نفسه، ص 214

[20]- ابن عربي، **الفتوحات المكية**، الجزء الثالث، ص350

[21]- شيشرون، **محادثات**، ج2، فقرة 5، في: **أعمال شيشرون الكاملة**، ترجمة وتحقيق نيزار، باريس، منشورات دوبوشيه، 1840

الآية: «اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج» (الحج، الآية 5). ويفسّر محمد الطاهر بن عاشور ذلك: «وربت: حصل لها رُبو ـ بضمّ الراء وضمّ الموحدة- وهو ازدياد الشيء. يقال: ربا يربو ربواً، وفسر هنا بانتفاخ الأرض من تفتق النبت والشجر. وقرأ أبو جعفر "وربأت"، أي ارتفعت»[22]. فالربو يفيد الارتفاع والنمو والزيادة. التربية هي بالتعريف تنمية في الملكات الفكرية وزيادة في الفضائل الأخلاقية، وتقتضي الارتفاع والسموّ كفروع النبتة. وأفضل من أظهر هذه السمة التربوية-التنموية بالجمع بين التربية والتربية الشاعر السموأل:

نُطفــةً خُلقتُ يـوم بُريتُ   أمرتْ أمرها وفيها ربيتُ
كنّها الله تحـت ستر خفيّ   فتخافيتُ تحتـــها فخفيتُ[23]

يعود بنا هذان البيتان إلى أصل التربية بوصفها الطريقة العضوية في تشكيل الكائن الحيّ انطلاقاً من النطفة، وكون الكائن يتغذّى من هذا الوسط لينمو ويربو، فينبري ويتربّى. فالتربية في هذه العتبة الأولية هي تبرية وإبراء بتقليم الكائن ونحت وجوده. عندما نقول: «تربية المواشي»، فلا نقصد بها تعليم هذه الكائنات لأنها لا تفقه الكلام البشري، ولكن تعليفها والعناية بها بيطرياً. يتعلق الأمر بتوفير الحماية لها وعلّة نموّها وبقائها على الحياة. فالدلالة الأصلية اللصيقة بالأرض انتقلت إلى الدلالة المجازية في العناية بالنفس، وكانت بالتالي النشأة الاشتقاقية لكلمة "كولتورا" (*Cultura*) في اللسان اللاتيني، وأقول أيضاً العلة "الانشقاقية" بأن انفصلت الثقافة عن الطبيعة واستقلّت النفس بخطابها السيكولوجي والأخلاقي. فالمناسبة بين فعل الحرث في الأرض وفعل الكسب في النفس هي مجازية وتبقى مجرّد صورة كما يؤوّل ياغر المسألة: «لا يوجد شيء كثير يمكن استخلاصه من المقاربة بين الطريقة التربوية والزراعة»[24]. تبقى المقاربة في حدود التمثيل بالمعنى المنطقي ولا ترتقي إلى الصياغة المفهومية التي اتخذت طريقاً آخر يأخذ في الحسبان تاريخ الثقافة في أبعادها النظرية والإنسية.

لا تُنتج هذه العلة الطبيعية الشرط الإنساني الذي هو الحرية. ينبغي البحث عن هذه الأخيرة في استقلالية الحكم بالمعنى الذي سنّه إيمانويل كانط، وعصر الأنوار عموماً. لأنّ استعمال العقل هو حُسن توجيه الشعلة الذكية (أعود دائماً إلى فكرة "الاشتعال" الرواقية)، تلك الشُعلة التي تبقى حيّة، وهّاجة، تنير السبيل الذي يسلكه الإنسان في حياته. لا تكفي كمية المعارف وحدها، ولا تكفي أيضاً الملكات الذهنية والقوى النظرية، ما لم تُضف

[22]ـ محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، تونس، 1984، الجزء السابع عشر، ص 203

[23]ـ **ديوانا عروة بن الورد والسموأل**، دار بيروت، د.ت، ص 81

[24]ـ فرنر ياغر، **بايديا**، المرجع نفسه، ص 362

إليها الموهبة في حُسن استعمالها وطريقة توظيفها في التكوين الذاتي والتشكيل الثقافي. البيلدونغ هي فكرة الثقافة وقد أينعت في القابل الإنساني، أي بمقدار تهيّؤ الإنسان لقبول الصور الفكرية واستيعابها في ذاته وترجمتها إلى أدوات نظرية وعملية يتصرّف بها في الحياة. من بين هذه الأدوات يمكن ذكر اللغة التي جعلها العديد من الفلاسفة والأدباء العمود الفقري للبيلدونغ، وأذكر على سبيل المثال هردر وهومبولت كما سنرى ذلك لاحقاً. وقبل ذلك، كان شيشرون قد جعل من الخطابة فنّ تشكيل الإنسان بقدرته على الحِجاج والبرهنة واندماجه في المجتمع، أي قُدرته على الاستعمال الوجيه للعقل والاستقلالية في الحكم والتمييز بدون عائق أو إكراه. لم يختزل شيشرون الخطابة في "جمباز ألسني"؛ أي الملاكمة بالمكالمة والقدرة على إفحام الخصم، ولكن جعلها قبل كل شيء، وهو أمر سيذهب إليه معظم منظّري البيلدونغ، كعامل في "الإدماج الاجتماعي" (socialisation) للإنسان بجعله كائناً اجتماعياً، أي كائناً عاقلاً وناطقاً يتفاعل مع محيطه البشري ويربط نوعاً محدّداً من العلاقات والمؤازرات. ويكون ذلك باللغة، الكائن الرمزي بامتياز الذي يجعل من هذا الإدماج الاجتماعي أمراً ممكناً.

تساعد اللغة الإنسان على الانتقال من الوضع الطبيعي الخشن الذي تهيمن عليه الوحدة والوحشة إلى المجال الثقافي الذي تسوده العلاقات الحيّة والمبادلات المادية والرمزية. تمكّنه اللغة من إنشاء علاقات اجتماعية تساعده أيضاً على تبرية طبعه وإبراء ذاته بما يبديه من أحكام وآراء وبما يتلقاه من إشارات وتنبيهات. هذه "التجارة" الرمزية بين البشر من شأنها أن تدفع بالشخص إلى مراجعة ذاته والتأقلم مع بيئته وتصحيح أخطائه، ويساهم بدوره في إبداء الآراء ومعالجة الوضعيات. لربما جعل روسو من الفطرة الطبيعية الثقاف الأسمى للإنسان السليم، لكنه كان على يقين من أنّ القابلية للاكتمال (perfectibilité) تمرّ أيضاً عبر الاختلاط بالناس بالتأثير والتأثّر واستعمال سياقي وراهني لأدوات اللغة كالخطابة والمجاز والرمز وغيرها من الأساليب اليومية في الحوار والسجال. إذا كان النموذج الإغريقي يمثل الثقاف النظري والعملي للبيلدونغ، فلأنّ هذا النموذج جعل من اللغة الموطن الحقيقي للإنسان بما يُبرزه من أفكار ونوايا وخبايا عبر الحوار في "الأغورا" (*agora*) أو سوق الكلام الإغريقي؛ بالمشاركة الفعلية في إدارة شؤون المدينة وسياسة السلوكيات والمعاملات. لقد منح الإغريق لكلمة "اللوغوس" (*logos*) دلالة أنطولوجية وحضارية هائلة، لأنهم كانوا على يقين من أنّ العقل يُدبّر الحياة، بدءًا من العقل الكوني (*noos*) الذي يُدبّر الكون وحتى العقل اللغوي الذي يُدبّر العلاقات الاجتماعية والمبادلات المادية والرمزية.

إنّ الغرض من البيلدونغ، التي تعلمنت (sécularisation) مع مرور الزمن وتطوّر العقليات، هو الوصول إلى الإنسان الخالق على شاكلة المهندس الكوني الذي اخترع الكون وصنع الحياة في أبهى انسجام. أصطلح على هذه الصورة المشخّصة للابتكار البشري اسم "الإنسان الباري" لأبقى في دائرة "التبرية".

فالإنسان يتشبّه هنا بالخالق في اختراع الأشياء وصناعة الحياة بإعادة ابتكارها في المراحل الزمنية من التطوّر التاريخي. تتحدّث محاورة "بروتاغوراس" الأفلاطونية عن هذه الفكرة باستراق أدوات الخلق من الآلهة كالنار مثلاً، وصيرورة الإنسان كائناً خالقاً: «لمّا كان الإنسان يمتلك حصة في الخواص الإلهية، كان في البدء الكائن الوحيد بين الحيوانات الذي امتلك أيّة آلهة، لأنه كان وحده من أنسبائهم. وهو الذي سيشيّد معابد ورموزاً لهم، وهو لم يكن لزمن طويل في اختراعه الخطب البيّنة والأسماء، وبنى البيوت ونسج الثياب وصنع الأسرّة والأحذية، وكسب رزقه من الأرض»[25]. فما تصنعه الآلهة في السماء يقوم الإنسان بابتكاره في الأرض بأن يأخذ عنهم الفضيلة والمهارة في التشكيل؛ فيكون بالتالي على صورتهم في الخلق والتكوين مجازياً. لكن الإزاحة التي حققتها البيلدونغ في انعطافها العلماني هو أنّ الإنسان أخذ على عاتقه مبادرة التكوين الذاتي (*Selbstbildung*) باستعمال أدوات التثقيف واللغة والتأمل في ابتكار حياته اليومية؛ فابتعد بالتدريج عن السرديات الكبرى والمرجعيات الحاسمة، الدينية منها والسياسية، التي كانت في فترة من حياته النموذج الأعلى. راح يبحث عن مقوّمات ذاته في ذاته باللجوء إلى أطر العقل وليس إلى بداهة النصوص، بالاعتماد على الذات في التربية والتخلّق وليس بالاستناد إلى مرجعية أو شخصية: «فكرة الإنسان ككائن يُشكّل ذاته ظهرت بصورة بارزة في أزمنة التحوّل والانشقاق عن الأنظمة التقليدية. ففي هذه الوضعية من التحرّر بالمقارنة مع أنماط التنظيم الراسخة ظهر، في أوج النهضة، مشروع البيلدونغ كتكوين ذاتي، أو الثقافة كتثقيف ذاتي»[26].

لكن في منعطف النهضة لم تكن البيلدونغ واضحة المعالم؛ لأنها لم تندمج بعدُ بالوعي الأوروبي الذي كان يغادر وقتها، وبكثير من الصعوبة والإجهاد، أزمنة العصر الوسيط بأنماطها التقليدية وبأزمنتها اللاهوتية. كانت البيلدونغ في هذه الفترة النهضوية "نخبوية" نوعاً ما، لأنها كانت تنحصر في شخصيات فلسفية أو فنية أو علمية أو سياسية، أي بظهور علماء أو خطباء أو فنانين منحوا لمواهبهم أو عبقرياتهم الإطار المادي والتاريخي، وكان هذا الفعل عبارة عن تشكيل ذاتي يستفيد منه العالم أو الفنان أو الخطيب السياسي ولم تنتفع منه العامة سوى بقدر ضئيل، ولأن المرحلة التاريخية التي تأسست فيها إمارات وممالك ومجتمعات النبالة والأرستقراطية في أوروبا لم تكن حاسمة في توسيع البيلدونغ وتوزيعها على قدر أكبر من الناس. كانت البيلدونغ في هذا السياق "ثقافة البلاط". "الكوجيتو" الديكارتي الذي افتتح الحداثة الأوروبية جعل البيلدونغ، في صيغتها الجنينية، تُعوّل على الذات وتؤسس لأنثروبولوجيا قبل أوانها. لم يظهر الإنسان في هذه الحقبة التاريخية سوى بظهور العلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر كما بيّن فوكو في «الكلمات والأشياء»، لكن بدأت الذاتية في التبلور والتشكّل. وتشكيل الذاتية معناه تشكيل الحكم المستقل بالانفصال التدريجي والحاسم والحتمي عن التأسيسات التقليدية

[25]- أفلاطون، **الحوارات الكاملة**، تعريب شوقي داود تمراز، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1994، محاورة بروتاغوراس، ج3، ص 57

[26]- أليدا أسمان، المرجع نفسه، ص 15

الراسخة. وسيتوطّد الأمر مع الأنوار التي منحت للحكم المستقل واستعمال العقل حقيقة عالمية. ويكون ذلك بالتربية التي تستعمل القيم السائدة والمعايير البارزة، لكن بصورة يتأقلم معها السلوك ولا تعطي الانطباع بأنها معايير قسرية تشلّ الإرادة الحرّة. كان هذا دأب وديدن كانط في جعل التربية مرتع العقل ومنبع الأخلاق.

3- "البيلدونغ" في التاريخ: تأويلات واستعمالات

أ- الدلالات الطبيعية والروحية: من التوازي إلى التقاطع

اشتهر عند **المعلّم إكهرت** Maître Eckhart (1260-1328) فكرة الكائن-الصورة بوصفه النموذج والنسخة في انعطاف كامل أو "لادونية" حيّة وتطعيمية. فالصورة هي الحياة في عطائها الخلاّق كفوران لا ينضب، وتكمن الحقيقة عنده في الولادة أو الإنشاء، أن يكون الكائن على صورة النموذج، مثلما هو الابن على صورة الأب، بالمعنى الديني لليسوع على صورة الربّ[27] تبعاً للآية الإنجيلية المعروفة: «لنجعل الإنسان على صورتنا [...] فخلق الله الإنسان على صورته» (سِفر التكوين، 1، 26-27). ويذهب فاكرناغل[28] إلى أنّ الفعل *bilden* والفعل *entbilden* هما من ابتكار المعلّم إكهرت، ويصلحان في التمييز بين الكائن-الصورة في وحدته الأصلية والنموذجية والفروقات الصورية في عالم الأشياء بالتعيُّنات الفردية. اتّخذت الصورة في هذا المعجم العرفاني الريناني (Rhénanie) دلالة الأصباغ، بأن ينصبغ الكائن بالنموذج ويُحقق في ذاته الصورة الأصلية، فتترك فيه علامة أو بصمة. جاءت هذه الفكرة الحيوية والروحانية لتعوّض جفاف البرهان العقلي في علم الكلام المسيحي كما اشتهر عند توما الأكويني مثلاً. يتعلّق الأمر باستبطان الكائن-الصورة وليس بالتدليل عليه. ويفسّر هذا الأمر لماذا كانت "البيلدونغ" (*Bildung*) كنموذج أصلي وتكوين حيّ في درجة أرقى من الثقافة (*Kultur*) كذوق وحساسية، ومن التنوير (*Aufklärung*) كاستدلال عقلي وتكويم معرفي.

كانت الكلمة اللاتينية *imago* تدل على شيء ميتافيزيقي مفارق، فيما اكتسبت الكلمة *bild* دلالة حسية وفنّية تجسدت في الرسم. فانتقلت الصورة من الدلالة المقدّسة إلى الدلالة الدنيوية. وهذه الدلالة الدنيوية هي التي ستغتني بها البيلدونغ كمفهوم بارز من النزعة الإنسية (Humanisme) لتدلّ على «سيرورة طبيعية وتاريخية تتشكّل بها البشرية بالمقارنة مع القوّة اللدائنية للطبيعة»[29]. فالشيء اللدِن بإمكانه أن يُصاغ في أيّ صورة كانت، الصورة الميتافيزيقية باستبطان الروح التي تُشكّله؛ أو الصورة الطبيعية بأن ينبري بالعجينة أو الخميرة كما

---

[27]- جولي كاستين، **المعرفة والحقيقة عند المعلّم إكهرت**، باريس، منشورات فران، 2006، ص 11 وبعدها.

[28]- فولغانغ فاكرناغل، **إيتيقا الصورة وميتافيزيقا التجريد عند المعلّم إكهرت**، باريس منشورات فران1991 ص 10

[29]- جياني فاتيمو وآخرون، **موسوعة الفلسفة**، المرجع نفسه، ص 179

جاء في السرد الديني الذي يتحدّث عن آدم المصنوع بالأدمة، وهي الأرض الحمراء. اكتست الدلالة الاصطلاحية هذه القيمة في الصياغة والتشكيل والخلق. في القرن الثامن عشر، أصبحت البيلدونغ مرتبطة بما كان يسمى وقتها "الشكل الباطني" الذي أوّله إرنست كاسيرر على أنه يمثّل المنظومة الحيّة أو العضوية (organisme). وكان هذا دأب العالم البيولوجي بلومنباخ الذي حصر كلمة "بيلدونغ" في الحياة العضوية تبعاً للتحديد الثاني الذي أوردته في بداية المقال. البيلدونغ هي بمثابة "المثال" الذي يطبع الكائنات على سمة معيّنة تُبرز انتماءها إلى النوع بعينه.

اكتست البيلدونغ هنا صيغة المثال الذي انطبع به الكائن كالخاتم الذي يترك أثراً من فعل الطبع، وانبرى به ليكتسب الشكل الأسمى من وجهة نظر صورية وجمالية. لكن في الوقت الذي كانت الفلسفة الطبيعية تشقّ طريقها في عالم يتحوّل من المرجعية اللاهوتية إلى المرجعية الإنسانية بفعل الأنوار، كانت النزعة التقويّة (Piétisme) في ألمانيا حريصة على الاحتفاظ بالصورة الروحية للتشكيل البشري، وكانت تضع القلب في مركز الوجود الإنساني وليس الفكر أو العقل، كما اشتهر عند الطوائف المسيحية الأخرى، الكاثوليكية أو البروتستانتية. لكن يبدو أنّ النزعتين كانتا تسيران جنباً إلى جنب بإعطاء البيلدونغ الدلالة المزدوجة: طبيعية وروحية. يبدو أنّ هذا التوازي بين النزعتين أصبح عبارة عن تقاطع، بل وتداخُل، عندما أصبحت الطبيعة إحدى تجليات الروح، بحيث الرابط المشترك بينهما هو الحياة في صورتها الدينامية، الخلاقة، الصانعة للكائنات، الواهبة للصور. لا تبتعد هذه الفكرة عن الرواقية كما بيّنتُ سابقاً، ما دام أنّ هذه المدرسة الإغريقية كانت تضع الإله في العالم، يسري فيه ويجري في تفاصيله سريان الدم في الشريان. بهذا المعنى، اقتنت البيلدونغ على وحدة مفهومية تجاوزت الصراع بين نزعتين تبدوان متناقضتين في أزمنة الصعود المدوّي للعلم في القرن الثامن عشر والانحسار التدريجي للمرجعية الدينية.

كانت البيلدونغ الدينية تُصبغ على الذاتية صبغة لاهوتية في استبطان صورة الحق في الذات، فيما توجّهت البيلدونغ الإنسية نحو استبطان صورة العالم بشكل معرفي ورمزي. تُبيّن أليدا أسمان الفرق بين البيلدونغ الدينية والبيلدونغ الإنسية باللجوء إلى الرمز الذي يميّز هاتين الطريقتين في التبرية: رمزية البذرة (semence) ورمزية الخاتم (sceau). تستعين البيلدونغ الإنسية بصورة البذرة لتتحدّث عن السلوك التطوّري للإنسان: من النطفة إلى الرُشد العقلي. فهو تطوّر عضوي وروحي في الوقت نفسه، يأخذ الإنسان كوحدة جسدية ونفسية، بين التكوين الجسمي بتشكّل الأعضاء والأوعية والشرايين والتكوين النفسي بالانتقال من الطفولة إلى المراهقة ثم البلوغ والاكتمال العقلي. فالملاحظ أنّ هذه الفكرة تشدّد على التطوّر العضوي والنفسي للإنسان ولا تأخذ في الحسبان تدخّل إرادة أو قوّة سوى القوى الكامنة في هذا التطوّر بنقله إلى منتهاه في الاكتمال والبلوغ، وهي قوى طبيعية وإدراكية تمدّ الإنسان بمقوّمات الحفاظ على نوعه والارتقاء في نمط رؤيته للعالم. على الخلاف

من هذه الفكرة الإنسية، علمانية في جوهرها؛ فإنّ البيلدونغ الدينية، كما روّجت لها الكنيسة، كانت تُشدّد على تدخّل قوة خارجية في هذا التطوّر عبر صورة الأب أو الربّ أو الراعي الذي يعتني بالقطيع وبكل خروف على حدة كاهتمام بفردية كل عضو من هذا القطيع؛ أي بكل مؤمن منخرط في مجتمع الإيمان.

إنّ الصورة الرمزية المناسبة لهذه الفكرة هي بلا شك الخاتم الذي يفيد العلامة الموضوعة على الفرد، العلامة الملتصقة في جسده، وتتراءى في شعائره وسلوكياته. فبالنسبة لليهودية والإسلام، الخاتم البارز في الجسد هو "الختان" كعلامة على الانتماء؛ وبالنسبة للمسيحية فهو الاستحالة (transsubstantiation) بالترميز إلى جسد اليسوع ودمه بالخبز والنبيذ خلال شعيرة التناول (eucharistie). يتناول المؤمن هذه العناصر لتنطبع بذاتيته، جسدياً وروحياً وتُعبّر عن انخراطه في المجتمع وتختمه بخاتم هذا الانخراط والولاء. كذلك صورة الإله التي طُبع عليها الإنسان تدخل في سياق هذه البيلدونغ الدينية. فالأديان التوحيدية كلها تحيل إلى هذه المناسبة في الصورة بين الإله والإنسان تبعاً لسِفر التكوين الذي أوردته سابقاً. يكتب غادامير: «يستحضر ظهور كلمة "بيلدونغ" التراث الصوفي القديم الذي كان الإنسان طبقاً له حاملاً في روحه صورة الله التي تشكّله، ويجب أن يزرعها في نفسه»[30]. يمنح التصوّر المسيحي لهذه المناسبة في الصورة بين الإله والإنسان قيمة نظرية وشرعية. فالصورة تعكّرت بحادثة الهبوط (chute) وعلى عاتق الإنسان صقلها باستمرار، بالصلوات والأذكار والفضائل، ليُعيد إليها نصاعتها ويرى الحق فيها. وليست هذه الصورة سوى في ذاته لأن الحقّ مخبّأ في أعماقه. عندما يُبري ذاته فإنه يصقل الصورة التي خُلق عليها ويقترب هكذا من الحالة الأصلية، الحالة الآدمية التي كان عليها قبل الهبوط. كان أوريجانوسOrigène (185-253) يرى في الخلق عملية مستمرة وغير مكتملة وليس دُفعة واحدة. يقتضي الخلق التطوّر في الزمن، الدخول التدريجي في حيّز الوجود، التكوين المستمر للقوى والملكات. هذه الفكرة التي طرحها أوريجانوس مهّدت للتصوّر الحديث للبيلدونغ الذي أخذ بالفكرة العضوية دون أن يُهمل الفكرة الدينية التي قام بأقلمتها مع روح الزمن.

من جهته، أثار باراسيلسوس فون هوهنهايم Paracelsus von Hohenheim (1493-1541) الانتباه إلى هذا التعاضد الكائن بين الطبيعة والروح، مئات السنين قبل ترسيخ الوحدة المفهومية للبيلدونغ، وقبل فكرة هيغل حول المفهوم عينه عندما سلّم قائلاً: «إنّ القوة التي تتجسّد فيها كلمة الله ـ قوة السيرورة المشكّلة- ليست في الإيمان، ولكن في هذا النور الطبيعي (*Licht der Natur*) والفطري لدى الإنسان الذي يُشكّل الأساس الباطني لمعرفة الله»[31]. تنخرط هذه الفكرة في المسار التاريخي نفسه منذ الرواقية وهو إيجاد "وحدة في

[30]- غادامير، **الحقيقة والمنهج**، المرجع نفسه، ص 59

[31]- نقلا عن: مارينو بوليبرو، «أصل البيلدونغ» في كتابه: **الرغبة في الأصالة. فالتر بنيامين وتراث "البيلدونغ" الألمانية**، المرجع نفسه، ص 298

الوجود" بين البُعد الإلهي المتعالي والبُعد الطبيعي المحايث، ولا شك أنّ باراسيلسوس كان ينتمي إلى هذا التيّار الفكري الباحث عن الوحدة الكونية والذي انتشر في بداية عصر النهضة مع الكاردينال نيكولا الكوسي Nicolas de Cues (1401-1464)، والقادم من غياهب الوحدة المذهبية في إسبانيا الإسلامية مع ابن عربي (1165-1240) وابن سبعين (1217-1269) وامتداداتها في إسبانيا الكاثوليكية مع إينياسيو دو لويولا Ignace de Loyola (1491-1556). إذا كان المنطلق الروحي عند باراسيلسوس يشوبه مزيج من الرَوْحية والخيمياء (شبيه بما اشتهر عند جابر بن حيان)، فلا يمكن التغاضي عن انسجام الفكرة في مذهبه وهي قانون المنظومة الحيّة التي تُدبّر الكائن العضوي والروحي على حدّ سواء.

تحاول هذه الفكرة الوحدوية حل التناقض بين الطبيعي والروحي، لأن الطبيعي الذي يستقل بقوانين محايثة يمكنه أن يستقل عن الروحي بتوجّه ذاتي له "مطرس أو منشأ أو قالب" (matrice) يتضاعف عبر أجيال متوالية (générations) وتكمن غايته في ذاته، أي غائية محايثة (téléologie). تبقى الروح خفية في هذه السيرورة الطبيعية وتنفث في روعها نظام اشتغالها وبقائها، ولأن الأمر الجامع بين الطبيعي والروحي هو "الصورة" (forme) التي تنطبق عليها المضامين العُضوية أو الباطنية (أياً كانت)، والبيلدونغ هي بهذا المعنى "التصوير" (formation)؛ أي التكوين بابتكار الكائن في الكون الذي ينتمي إليه: كون عضوي أو كون روحي. الأمر الذي تغيّر بالفعل، على الصعيد "الدياكروني" (التزامني)، هو انتقال الدلالة من الإطار اللاهوتي الذي كان يُغلّفها إلى الإطار الإنساني الذي منحها بُعداً أنثروبولوجياً حول طريقة تشكيل الإنسان لذاته. كان ذلك في منعطف سنة 1800 عندما انتقلت البيلدونغ من "التكويم التنويري" بجمع المعلومات وشحن الذهن بالمعارف والتصوّرات إلى "التكوين التربوي" القائم على نوع من صناعة الذات (autopoiésis)[32]. وتقتضي هذه الصناعة الذاتية أن يكون الإنسان عبارة عن فاعلية أدائية في قولبة الطبع وتصحيح السلوك وليس جوهراً مفارقاً كما كانت الميتافيزيقيات العريقة تنظر إليه. يمكن الحديث عن علمنة البيلدونغ مع فيرهاوس Vierhaus بالتحوّل من الباطنية التقويّة إلى الحداثة الفكرية.

عمدت البيلدونغ في منعطف القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى أن تكون نوعية ومركّبة تجمع بين مختلف التيّارات الدينية والعضوية والكلاسيكية في وحدة مفهومية. لا يتعلّق الأمر بتوفيق ولا بتلفيق ولكن بصيرورة فكرة عملت على استيعاب التناقض الكامن فيها: الثقافة اليونانية، والثقافة المسيحية، والنزعة الإنسية، والأنوار. الخيط الرفيع الجامع بين هذه العناصر هو الاستبطان والاستفراد؛ 1- الاستبطان بإدراج القيم الروحية والإنسية في الذات قصد تشكيلها وتربيتها لتربو وتسمو في سُلّم الوجود؛ 2- الاستفراد بتخصيص

[32]- ميشال إسباني، «البيلدونغ»، المرجع نفسه، ص 198

الكوني في الذات، بتشكيل فردية تُعبّر عن رؤية في العالم وعن نمط في السلوك. كذلك حاولت البيلدونغ معالجة التناقض البارز بين النزوع الاجتماعي والاختصاص الفردي. فالاختصاص الفردي يستقلّ بالاستبطان والاستفراد في تكوين الإنسان. لكن ما بال النزوع الاجتماعي؟ ألا يساهم في تشكيل الفردية الإنسانية عبر العائلة والمدرسة ودور العبادة والتمدّن؟ ألم يكن "الإدماج الاجتماعي" (socialisation) طريقة في تكوين الإنسان بالقيم الجماعية التي ينخرط فيها بحكم الانتماء التاريخي والجغرافي والفكري؟ كان الإدماج الاجتماعي خاصاً بالنزوع الديني (الثقافة المسيحية) وسيعود مع النزوع القومي (صعود القيم الوطنية). لكن التصور البارز الذي غلب على البيلدونغ في هذا المنعطف التاريخي للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو تكوين فردية الإنسان بالقيم اللغوية والروحية؛ أي البيلدونغ كمسار لدائني وتشكيلي.

إنّ مفهوم التطوّر بالمعنى "الطبيعي" لدى الكائن العضوي، وبالمعنى "الروحي" لدى الإنسان العاقل تواقت مع صعود مفهوم حديث ومعروف، وهو مفهوم "التقدّم". أتاح هذا التقدّم الانتقال من مجتمع قائم على "التراتب" السياسي والديني إلى مجتمع قائم على "التمييز" الطبقي (نبالة، أرستقراطية، عمالة). ظهر هذا التمييز في الوقت نفسه الذي صعدت فيه المعرفة العلمية والتقنية، واتّجه الزمن آنذاك نحو التخصُّص وتجزيء المعرفة. اكتسبت البيلدونغ دلالة جديدة، مطبوعة بروح الزمن، لكن تختلف في جوهرها مع فكرة التخصّص، بل تتعارض معها؛ لأنها وببساطة، وكما رأينا سابقاً، لا تُقاس بالخبرة أو المعرفة الكمية. لكن ندرك أنّ أي مفهوم أو تصور يخضع في التاريخ إلى وطأة الأحوال التي تضفي عليه دلالة جديدة، تناقض أحياناً الروح الأصلية التي تشيّد عليها. إذا كانت أصالة البيلدونغ تتراءى في التكوين الذاتي، فإنّ هذه الفكرة لا تختفي في الخبرة. فالإنسان الخبير أو المتخصص يحمل في نمط عمله القيمة التكوينية أو التشكيلية. شهد الزمن الحديث الصعود الكاسح للعلم والتقنية، فكان حتمياً أن تنصبغ البيلدونغ بدورها بهذا التوجّه الزمني وتكتسب دلالة جديدة تتأقلم مع هذا التوجّه. إنّ التخصّص أتاح الفرصة لبروز طبقات اجتماعية تفاقمت معها حاجاتها ومطالبها، وأتاح أيضاً التمييز بين الحقول المعرفية والسلوكية: السياسة/الدين، السياسة/الفن، الفن/العلم، إلخ. لكن بفارق كبير، حافظت البيلدونغ على أصالتها التاريخية باشتمالها على قيم الحكم المستقل والتمييز العقلي التي نادت بها الأنوار، وعلى قيم التربية وتدبير الذات التي تتطلب عملاً دؤوباً في تبرية الطبع وتقويم السليقة والملكة.

تتقاطع البيلدونغ مع قيم الأنوار التي يمكن تلخيصها في ثلاثة توجّهات:

1- **الحرية**، باستقلال الإنسان بتفكير ذاتي بعيد عن كل إكراه برّاني في شكل سلطة أو مؤسسة أو تراث. فالقيمة الفردية لها مكانتها في حقل العلاقات الاجتماعية التي تخترقها حُزمة من الإكراهات والضوابط. لا يخرج الفرد عن الضروريات الحتمية كالجغرافيا التي وُلد وعاش فيها أو التاريخ المحلي الذي ينخرط فيه أو

التراث الذي ينبري به، لكن بدلاً من أن تكون علاقته بهذه التحديدات "انفعالية"، فإنها تكتسي دلالة "فعلية" بأن يستعمل العقل في الحكم على هذه التحديدات التي تُدبّر مساره ومصيره وإمكانية تعديلها أو أقلمتها تبعاً للحاجة وللغاية. هناك إذن، «توجّه» داخلي يستقيه من ذاته (العقل، الوجدان، الذوق) ولا يكتفي بـ«توجيه» خارجي قد لا يتفق وبُغيتَه؛ أي توجيه مضاد للحرية ذاتها.

2- **التقدّم**، بانخراط البيلدونغ في التاريخ، لأن التقدّم يُفيد أساساً مسار الزمن الذي تنشأ فيه الأشياء أو الكائنات وتتطوّر. فالتقدّم هو مرحلة زمنية لا ينفك فيها الفرد عن تكميل ما نقص في ذاته من عناصر يقتنيها من أعماقه الداخلية ومن بيئته المباشرة وغير المباشرة. يقوم باستيعاب العناصر من البيئة لتحويلها إلى دوافع ومحفّزات على التطوّر. فالقيم الثابتة أو الموروثة، لكي لا تصبح العائق في التقدّم، فإنها تتحوّل إلى دوافع يستوعبها الفرد ويقوم بتحديثها. فالعلاقة بالتراث أو الموروث هي دينامية تنفخ فيه الحركة وتجدّد هيكله. بما أنّ الفرد يستعمل الحكم في العلاقة بالتراث، فهو يتحرّر إذن من الإكراهات وتصبح هنا الحرية سبيل التقدّم.

3- **العالمية**، بصيرورة البيلدونغ قيمة كونية تشترك فيها الثقافات، وتسعى إلى تشكيل "الإنسان الكوني". ليس هذا الإنسان الكوني حقيقة ميتافيزيقية، متعالية عن شروطها التاريخية والمحلية؛ ولكن الإنسان الذي يستبطن الكوني في ذاته فتكون له صبغة كونية، لأنه يستوعب جِماع القيم العالمية مثل العقل والحرية والأخلاق ويُحقّقها في ذاته. باستبطانه لهذه القيم في داخله، فإنه ينطبع بصورة الكوني في خارجه. يُصبح، نوعاً ما، "الكون الصغير" مثلما العالم هو "الإنسان الكبير" تبعاً لمصطلحات عريقة استعملها نميسيوس Nemesius (350-420م) وبعده إخوان الصفا في الثقافة الإسلامية. تنشأ علاقة تبادلية، شبه مرآوية، بين الإنسان والعالم، وترتقي بالفرد إلى هذه الكونية التي يحملها في ذاته.

ب- البيلدونغ عند الفلاسفة: نظرة في الشكل والمحتوى

- يقتضي هذا العرض التاريخي الانتقال إلى التصوّر الفلسفي لفكرة البيلدونغ وإسهامها في تشكيل فكرة الثقافة. سأورد هنا بعض النماذج الفكرية الحاسمة باقتضاب، تاركاً التفصيل في طيات المشروع الذي ألمحتُ إليه في البداية. اكتست البيلدونغ عند **يوهان هردر** (1744-1803) صورة جماعية تخص "تبرية الشعب" وليس فقط صورة فردية في التكوين الذاتي، تكوين المجتمع، ومن ثم تكوين البشرية كلها، هو الشكل الفلسفي الذي كان يُعوّل عليه هردر في سبيل فلسفة في التاريخ تجعل من التطوّر الروحي للإنسانية الأس والأساس. لأن البيلدونغ هي حركة والحركة هي الزمن من خلال ترقية الكائن في سلّم الوجود باكتساب أعضاء ووظائف. وبالتالي تُصبح البيلدونغ فلسفة في التاريخ لأنها تقتضي التكوين في الزمن للمجتمع بالاشتغال على تراثه

الماضي وكل الذخائر الرمزية المتواترة في الزمن التي طَبَعَته بهذا الشكل أو ذاك. فالأزمنة المتجمّعة في جغرافيا معيّنة (غزوات في التاريخ، استعمارات، حضارات..) تُشكّل كلها عوامل بارزة ودفينة في تبرية المجتمع: «ليس التكوين والتحسين في [طبع] الأمة سوى عمل المصير: نتيجة أسباب متعدّدة تُساهم في كل عنصر تتطوّر فيه»[33]. يُشدّد هردر على العوامل المتعدّدة الداخلة في تشكيل المجتمع، بما في ذلك المعطيات الخارجة عن نطاقه (المصير) أو تلك التي تفلت عن درايته (البنية اللاشعورية)، وليس فقط العوامل التنويرية في الحكم والتعقّل والوعي كما روّج لها عصر الأنوار. وبالتالي، سار هردر عكس التيّار بنفوره من هيمنة الأنوار (الفرنسية على وجه الخصوص) التي كانت تبتغي العالمية ليركّز على الخصوصية الثقافية حيث تشكّل اللغة النبراس والأساس. لأن اللغة هي لغة قوم أو أمّة، حاملة تصوّراً معيّناً حول العالم أو الوجود، ولا يمكن اختزالها إلى تصوّر آخر تحمله لغة أخرى. والكتاب الرئيس الذي وضع فيه رؤيته التاريخية للبيلدونغ هو «نحو فلسفة أخرى في التاريخ من أجل تكوين البشرية» (1774) يعرض فيه أهم المحطات التاريخية في تشكّل الحضارات، وأنّ كل حضارة تتمتع بخصائص ذاتية لا يمكن اختزالها إلى حضارة أخرى مهما كانت راقية. فالفكرة التي وضعها هردر كانت تسير نحو الإقرار بما يسمى اليوم "النسبوية الثقافية" (Relativisme culturel).

كذلك في سجاله مع روح الأنوار الرائدة في عصره والسائدة في أقاليم جغرافية واسعة ومتنوعة، قام هردر بنقد مفهوم العبقرية (génie) بالمعنى الفردي ليلبسها حُلّة جماعية بالتركيز على مفهوم "الشعب" أو "الأمّة"، ليس بالمعنى القومي المبتذل، لكن بالمعنى الروحي والمتعالي. فالشعب هو حامل روح فكرية وحضارية وعبقرية دفينة تجعله ينفرد ببعض الخصائص التي تتراءى في الروائع التي يخلّدها، الشفهية منها على وجه الخصوص مثل الحكم والأمثال والأقوال المأثورة والأشعار والأغاني، والتي هي حاملة ذاكرة لغوية وتاريخية تساهم في تكوينه المستمر والحفاظ على مقومات وجوده: «كل فلسفة يمكنها أن تكون فلسفة الشعب، ينبغي أن تجعل من الشعب مركز ثِقلها (...)،إذا أرادت فلسفتنا أن تكون عبارة أن أنثروبولوجيا»[34]. بدت الفلسفة في نظر هردر "نخبوية" وفي علاقة تضاد مع "روح الشعب" (Volkgeist)؛ لكنّ الأمر الذي كان يعوّل عليه هو تأسيس فلسفة الشعب التي تعتني بالذخائر الرمزية والألسنية الكامنة في التراث، وتصبح بالتالي فلسفة في اللغة وأيضاً أنثروبولوجيا فلسفية تعتني بدراسة الطريقة التي يتكوّن بها الشعب بالاعتماد على عبقرية كامنة في تراثه. كان هردر على يقين من أنّ مصطلح الشعب كانت تشوبه نعوت التحقير والابتذال، واجتهد في إخراج هذا المصطلح من الدلالة السلبية إلى الدلالة الإيجابية بالاعتماد على ذخائر اللغة الموروثة والموازاة بين

[33]- يوهان هردر، **الأعمال الفكرية**، درمشتات، 1984، ج1، ص.643، نقلا عن: ميشال إسباني، «البيلدونغ»، المرجع نفسه، ص 197

[34]- نقلا عن غيرهارد صودر، «المفهوم الهردري للشعب واللغة»، **المجلة الجرمانية العالمية**، العدد 20، 2003، ص 124

مصطلح "الشعب" ومصطلح "الأمة"، حتى لا يكون الشعب مجرد كمية أو حشد من الأفراد يقطنون موطناً معيّناً، بل ليكتسي دلالة روحية بليغة كالتي يتمتع بها مصطلح "الأمّة".

ـ كذلك مهّد تيّار «العاصفة والعاطفة» (*Sturm und Drang*) لفلسفة في التكوين الذاتي قائمة على الشعور الرومانسي والانفتاح على مشاعر الذوق والذاكرة والاستبطان، ومن أشهر ممثليه بالإضافة إلى هردر، كل من **يوهان غوته** (1749-1832) و**يوهان شيلر** (1759-1805). أسمّيه «تيّار العينين» نسبة إلى "العين" من العاصفة والعاطفة. الفكرة المحورية التي غذّت "العينين" هي الحرية الفردية، وبالتالي يُعدّ استمرارية للتنوير الألماني؛ ولكن في الوقت نفسه التحرّر من كل الإكراهات الاجتماعية والضغوطات الأخلاقية، والتحرّر من فكرة ثابتة للعقل بتحرير الانفعالات والعواطف، بما في ذلك العواطف العنيفة الشبيهة بالعواصف الهوجاء. وتُعدّ رواية يوهان غوته «آلام الشاب فرتر» (1774) المعلم البارز لهذه الروح الفنية التي تبحث عن ذاتها في الحبّ والأمل والألم. تيار "العينين" هو ثورة أدبية كان المراد منها تحرير الفرد من الانغلاق النفسي والاجتماعي بإطلاق العنان للرغبات والمواهب الخلاّقة. لا يمكن ألا نرى وراء هذا التيّار أطياف جون جاك روسو الذي أعلى من شأن الطبيعة والرغبات تجاه حياة إنسانية تنحو صوب العقل الجاف والحضارة التقنية. تربّى تيار "العينين" على أفكار روسو الطبيعية والإنسانية بتحرير الرغبة والقول أمام سياج أخلاقي يؤطّر المجتمع ويدفعه نحو تطبيق الأعراف والالتزام بالتقاليد والتراثيات. يمكن اعتبار سنة 1770 كتاريخ ميلاد هذا التيّار بعد اللقاء الذي جمع غوته وهردر في ستراسبورغ، ليتوسّع بعد ذلك نحو مدن فرانكفورت وغوتنغن وفايمار. كان هذا التيار يعتمد على لقاءات بين جيل الرومانسيين على غرار غوته وشيلر وهردر وشليغل وغيرهم ممن منحوا لتيار "العينين" دينامية فكرية وأدبية عبر القراءة الجماعية والمراسلات والأسفار والزيارات.

لم يدم هذا التيار طويلاً، ولكنه ترك أثراً عميقاً في الحركة الأدبية والفكرية في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر، خصوصاً مع رواد الرومانسية على غرار الأخوين شليغل، أوغست فلهلم (1767-1845) وفريدريك (1772-1829). يتميّز هذا التيار بإعلائه من شأن "الطاقة" فيما كانت الأنوار تركّز على "العقل". قام الشتورماريون[35] (Stürmer) بجعل الطاقة (Kraft) والدافع (Trieb) والنبرة (Stimmung) والحرارة (Glut) والحميّة (Begeisterung) والمحفّز (Drang) وغيرها من المصطلحات معجماً خاصاً بتيار "العينين"، لأنها مصطلحات على هامش العقل بالمعنى التنويري للكلمة، بحكم أنها تأخذ في الحسبان الجانب "الحيوي" من الإنسان (دوافع، غرائز، قوى..) وليس فقط الجانب "العقلي" (تخمينات، تأملات، أفكار..).

[35]ـ أقصد بهم رواد "العاصفة والعاطفة".

فالطاقة الحيوية تنساب في كل ظاهرة وجودية، بما في ذلك اللغة، وكان هذا دأب هردر الذي تحدث عن "قوة الكلمات" (Machtworte) التي لا تدل فقط على أشياء العالم، بل تطبع هذه الأشياء وتطبع الشخص الناطق بها بأن تكوّنه ثقافياً وفكرياً. وأفضل ما تتجلى هذه الطاقة اللغوية كفوّارة، في الشعر الحامل لنبرة خاصة بقوم أو إقليم. وعندما نتحدث هنا عن النبرة (Stimmung)، نقصد بها "الصوت" (صوت الشعب عبر الأغاني والقصائد والتراث الشفهي عموماً) وأيضاً "النشاط" (Tonus) بما هو طاقة نابعة من حركة الأشخاص والكلمات في الوجود: «إذا كانت الأنوار ترى في البورجوازي هو المجسّد للعبقرية القومية، فإنّ هردر يحدّدها بالأحرى في الشعب»[36]. هذا السجال الذي ألمحتُ إليه بين الأنوار والرومانسية يبيّن بالقدر الكافي الطريقة التي كان يُنظر بها إلى الإنسان: "كائن عاقل" بالنسبة للأنوار؛ "كائن حيوي" بالنسبة لتيار "العينين". وانجرّ عن هذا الاختلاف في إدراك حقيقة الإنسان اختلاف في الكتابة الفلسفية والأدبية بين النزعتين العقلية والحيوية.

انجرّ عن هذا الاختلاف في الرؤية تصادُم في الكتابة، لأن التيار العقلاني الذي تمثله الأنوار كان يضع ثقته في الحضارة بأن تقود البشرية نحو الاكتمال العقلي وتربية المجتمعات المسماة "بدائية" أو "بربرية" بتحضّرها وتكوينها وعقلنتها. لكن التيار المقابل، تيار "العينين"، رفض هذه المركزية الحضارية بجعل "الطاقة" مفهوماً كونياً تشترك فيه كل الأجناس البشرية، بحكم الدافع الحيوي والطبيعي، وليس "العقل" الذي وقع في فخ الاحتكار من طرف حضارة صاعدة، وهي الحضارة الغربية بمفاهيمها في التقدّم والتقنية. قد نتحدث عن "قطيعة" بين التيارين بحكم هذا الاختلاف النظري، لكنّ هناك نوعاً من "الاستمرارية" بحكم انتماء التيارين إلى الفترة التاريخية نفسها، ولأنّ الفلسفة المشتركة بينهما هي "تكوين الإنسان"، سواء بالمبادئ العقلية العالمية أو بالدوافع العاطفية والرومانسية، لأنّ الإنسان هو وحدة ذهنية ونفسية لا تتجزأ ولا تتبعّض؛ فهو في الوقت نفسه عقل مفكّر ودوافع حية ونشيطة.

- البيلدونغ في تصور **فريدريك هيغل** (1770-1831) هي نوع من الوعي الذاتي بتطوّر الروح. لكن يبقى نموذج الكائن الحي والعضوي هو "الثقاف" الفلسفي الذي أخذ به هيغل لتبيان الغائية الذاتية لهذا الكائن، حيث تكون غايته في ذاته، في شكل انعطاف أو انعكاس، لأنّ الكائن يجد قانونه في ذاته ويستمد علة وجوده وصيرورته من المبدأ الداخلي الذي يُدبّره. يحصل عند الكائن نوع من الوعي بالذات يجعله يرتقي، ينمو، يسمو، يربو (وهي مرادفات "التبرية" أو البيلدونغ) لينتقل من اشتراطه الطبيعي إلى شرطه الفعلي والواقعي الذي تحتويه الفكرة أو تغمره الصورة (*Gestalt*). كذلك يركز هيغل على الطابع الموضوعي للتكوين وليس

[36]- لوي فينك، «حول الفن الألماني: تيار "العاصفة والعاطفة" والقومية الثقافية»، ضمن كتاب: **تيار "العاصفة والعاطفة": قطيعة؟** ماريتا جيلي (تحت إشراف)، جامعة بزنسون، الآداب الجميلة، باريس، 1996، ص 102

فقط على الطابع الذاتي، لأنّ الفرد ينتمي إلى تراث يستغرقه، وُجد قبله، يتحرك فيه ويسهم في إثرائه بقدر ما يثري معارفه ويستعملها في التكوين الذاتي. وبفضل الفكر الموضوعي، يعمل الفكر الفردي على الخروج من قوقعته الذاتية بالتواصل مع الذوات الأخرى، حيث يشكّل الفكر الموضوعي الحوصلة والمجال. الفكر الموضوعي هو جماع الابتكارات النظرية عبر التاريخ التي تتجسّد في قوالب ملموسة في الفن والموسيقى والنحت والكتابة والأنساق الفلسفية والدينية والسياسية. فهو يتيح للذات بأن تجسّد عبقريتها في شيئية ملموسة؛ ولكن عندما تُجسّد هذه العبقرية في أشياء مستقلة، فإنّ هذه الأخيرة تنفرد بمنطق خاص قام إرنست كاسيرر بمفهمته في كتابه «منطق علوم الثقافة»، وقام جيورج زيمل بالإشارة إلى معضلته المتوارية ونعت ذلك بالعبارة «تراجيديا الثقافة». فالفكر الذاتي يُجسّد مواهبه في أشياء، ومجموع هذه الأشياء تشكّل الفكر الموضوعي. فهي تستقل عن الذات بسيرورة خاصة. تساهم في تشكيل الذات وتكوينها بالاشتغال على ذاتها عبر تحسين الصنائع وتنقيح المواهب، لكن سرعان ما تتجاوز الذات التي لا تجد الطاقة الكافية لهضم واستيعاب كل الأشياء المصنوعة بوتيرة متسارعة.

لم يطرح هيغل هذه الدينامية بالشكل التراجيدي الذي نظّر له زيمل ("هيغلي" بامتياز). فهو طرحها من وجهة نظر جدلية تأخذ في الحسبان صيرورة التاريخ والنقائض المتواترة، بل كان يرى في الفكر الموضوعي ملاذ الفكر الذاتي في التحرّر. ومن خصائص هذا التحرّر التكوين أو التثقيف الذاتي الذي يساهم في تحرير الذات من عبق الجهل ويربطها بالعالم. وجعل هيغل من التربية مجال التبرية (مقلوب الكلمة العربية)، لأنها تتيح للفرد ضبط ملكاته وتوجيه قواه بالاشتغال على ذاته وتهذيبها بالتجربة والمراس. التربية هي تهذيب الطبيعة البشرية بشق تربتها واستخلاص المعدن النفيس ثم تنقيته وتليينه بفضّ الفظاظة الكامنة في الطبيعة. فهي تُبري الفرد لتكشف في أغوراه عن النزوع الروحي والفكري الذي يسمو به. ومن شأنها أن تصحّح التصوّرات الفردية بالأحكام العالمية حيث تمثّل المدرسة إحدى التجليات البارزة. فالمدرسة تقوّم ميول الفرد المتنوّعة التي اكتسبها في جوّ مشحون بالعواطف وهو العائلة. فالعائلة هي مأواه الطبيعي فيما هو يجد في المدرسة ملاذه المعرفي والثقافي. لكنه لا يكتفي بما يقتنيه من معارف كمية، بل عليه أن يحوّل هذا التكديس المعرفي إلى صفقات رابحة تساهم في تقويم ذاته وتنميتها وأيضاً إخراجها من "التذويت" الضمني (على وزن التفعيل) نحو "التذاوت" الخارجي (على وزن التفاعل)، بفعل الفكر الموضوعي الذي تتحوّل فيه وتعمل على تدعيمه. بهذا المعنى تنعطف التربية على التبرية، لأنّ الأولى هي أداة الثانية، تزوّدها بمقوّمات العمل الذاتي القاصد العمل الموضوعي. لكن هل يمكن أن نختزل "البيلدونغ" في التربية؟ ليست التربية سوى جزء من المجال الواسع للبيلدونغ التي تقتضي الخبرة أو التجربة علاوة على التقويم الآتي من التربية وعلى المعرفة سليلة الثقافة.

- اختار **ويليام أو فلهلم هومبولت** (1767-1835) البيلدونغ الفردية في تقابل مع رغبة الدولة (وكان يقصد دولة فريدريك الثاني، ملك بروسيا) في تكوين أشخاص لهم كفاءات في خدمة الدولة، والذي أصبح لاحقاً ما يُعرف باسم الموظّف (fonctionnaire). أعرب هومبولت عن ذلك في رسالة إلى يوهان شيلر بتاريخ 25 يونيو 1797 طارحاً فكرة التشكيل الذاتي (*Bilde Dich selbst*) كفلسفة في التبرية ونموذج في اكتشاف الإنسان لذاته بما يصنعه من مثالات وأحكام. كانت هذه الفكرة تراود هومبولت منذ 1792، السنة الحاسمة التي وضع فيها اللبنات الأولى في "نظرية البيلدونغ". لم يتخلّ كليّة عن تراث التنوير في التشكيل الذاتي، ولكنه كان على يقين من أنّ المعارف لا تكفي وحدها في صناعة الطبع البشري. فهي علامة على التبحّر العلمي ودلالة على الإحاطة بالأشياء، ولكن لا تمسّ المركز الباطني للإنسان ما لم يُضفْ إليها الوعي بالذات والقدرة على توجيه القوى المتركّزة في الباطن. مزية المعرفة أنها تنير سبيل الإنسان، ولكن لا تصبح مفاتيح في الفهم الذاتي وفي الاتصال بالعالم سوى بالقدرة على كيفية استعمالها، «لأنّ سيرورة المعرفة التي تفتح على العالم الواقعي تتواقت مع قدرتها التكوينية بوصفها تطبع في "سُمك الأشياء [...] صورة روحها". بدلاً من أن يتيه، فإنّ الإنسان يُعزّز بفضل هذه السيرورة وعبر مختلف الأشياء من قواه الباطنية»[37].

لكن يبدو أنّ هذا "الداخل" الإنساني في علاقة تناقض مع "الخارج" الوجودي. فالعالم يستقل بقوانين ومبادئ موضوعة في الطبيعة، ولا يمكن للإنسان أن يتحكّم في هذا "الخارج" الذي يفلت من قبضته. تعمل البيلدونغ على إيجاد توازن بين باطن الإنسان وظاهر العالم، بين القوى السيكولوجية والإدراكية والمبادئ الموضوعية التي تشيّد عليها الواقع. الغرض هو دفع الإنسان لأن يُجسّد قواه وملكاته في الأشياء الموضوعية للعالم من خلال الخلق والابتكار، وهنا تكمن إحدى التحديدات الممكنة للثقافة بوصفها إرادة الذات في تجسيد الرغبة والعبقرية في شيء خارج منها وهو العالم الموضوعي. لكن بما أنّ العالم متعدّد المشارب ومتنوّع الأشياء، فإنّ قدرة الإنسان على تكوين ذاته والخروج نحو العالم تقترن بالكيفية التي يجمع فيها هذه الأشياء في وحدة عقلية تحميه من التيه والتبعثر. يجد في أشياء العالم الصورة الانعكاسية التي يتشكل بها فكرياً وروحياً.

[37]- مارينو بوليبرو، «أصل البيلدونغ»، المرجع نفسه، ص 301

خاتمة

لكل بداية نهاية، كذلك انتهت البيلدونغ بأن أصبحت سياسية ذات مسوغات إيديولوجية باستغلال الذاكرة القومية من أجل الهيمنة الإقليمية. في نهاية القرن الثامن عشر، وإثر تعزّز الدولة كحقيقة هيكلية في سياسة الأفراد، ظهرت "الأمّة" كحقيقة رمزية وتغيّرت معها دلالة البيلدونغ. انتقلت هذه الأخيرة من القيم العالمية التي روّجتها الأنوار إلى خصوصية أمّة أو شعب يتمتّع بمجال تاريخي وجغرافي وألسني مستقل، وكأنّ ذلك جاء تحقيقاً لحلم يوهان هردر. بدأت في هذه الفترة الإرهاصات الأولى في تشكيل "بيلدونغ" قومية تواقتت مع "بيلدونغ" تكنوقراطية ببروز شخصية الخبير المتخصّص في المعرفة التي لها غاية تقنية في حل مشكلات المجتمع. يمكن الحديث عن تواقت مسار وشعور. أمّا "المسار" فهو التخصص المعرفي المصاحب لتطوّر العلم والتقنية؛ وأمّا "الشعور" فهو التوكيد على الانتماء إلى مجتمع قومي تُعزّزه اللغة المتداولة والمطبوعة في الكتابة كلغة أمّ -أمّ لوطن-. تواقُت المسار التقني والشعور القومي هو انعكاس لتلازُم النزوع النخبوي (الخبير) والنزوع العمومي (الشعب)، وكأنّنا أمام بدهيّة الجزئي والكلي.

إذا انتهت البيلدونغ بصيرورتها قومية من جهة، وتقنية أو تكنوقراطية من جهة أخرى، فلأنّ عناصر من فلسفة الأنوار انتقلت إليها، عناصر تبتغي التقدم؛ فيما سقطت فلسفة التكوين والتثقيف في تخطيطات تربوية في الاعتناء بالمدارس والجامعات. هل هو موت البيلدونغ؟ لا، لأنّ التجليات في التربية والتعليم لم تستطع نفي القدرة على التبرية في العناية بالذات واللجوء إلى مصادر الثقافة من مسرح وموسيقى وفن تشكيلي وشعر وبلاغة وفلسفة وتفكير. البيلدونغ، على الأقل في هذا المفهوم الثقافي، تضحي عالمية أو كونية؛ لأنها خاصيّة كلّ إنسان يسعى إلى تكوين ذاته وتشكيل طاقته في الإبداع والابتكار بالعناصر الحرة التي يستقيها من الفن أو الأدب أو الفلسفة أو الدين. البيلدونغ هي ممارسة في الحرية، وتحرير في الطاقات والإمكانات.

المراجع:

- أفلاطون، **الحوارات الكاملة**، تعريب شوقي داود تمراز، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1994
- ابن عربي، **الفتوحات المكية**، بيروت، دار صادر، د.ت، أربعة أجزاء.
- محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، تونس، 1984
- جون جاك روسو، **إيميل أو في التربية**، ترجمة نظمي لوقا، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1958
- جون جاك روسو، **خطاب في أصل التفاوت بين البشر**، ترجمة بولس غانم، مركز دراسات الوحدة العربية، 2009
- الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، 1964
- جلال الدين السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، القاهرة، مكتبة دار التراث، د. ت، جزآن.
- هانس جيورج غادامير، **الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية**، ترجمة حسن ناظم، علي حاكم صالح، طرابلس، دار أويا، 2007

- ASSMAN (Aleida), *Construction de la mémoire nationale: une brève histoire de l'idée allemande de* Bildung, tr. Françoise Laroche, Paris, éd. Maison des sciences de l'homme, 1994
- ESPAGNE (Michel), « Bildung », in: Barbara Cassin (éd.), *Vocabulaire européen des philosophies*, Paris, Seuil/Le Robert, 2004
- GILLI (Marita), éd., *Le Sturm und Drang." une rupture ?* Paris, Les Belles Lettres, 1996
- JAEGER (Werner), Paideia. *La formation de l'homme grec*, tr. A. et S. Devyver, Paris, Gallimard, 1964
- HELL (Victor), *Idée de la culture*, Presses Universitaires de France, 1981, coll. « Que sais-je?».
- QUILLIEN (Jean), *G. de Humboldt et la Grèce: modèle et histoire*, Lille, Presses Universitaires de Lille, 1983
- VATTIMO (Gianni) [*et al.*], *Encyclopédie de la philosophie*, tr. française, Le Livre de poche, 2002

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com